همسات وقبسات

في الدبلوماسية الإسلامية

د . محمد محمود كالو

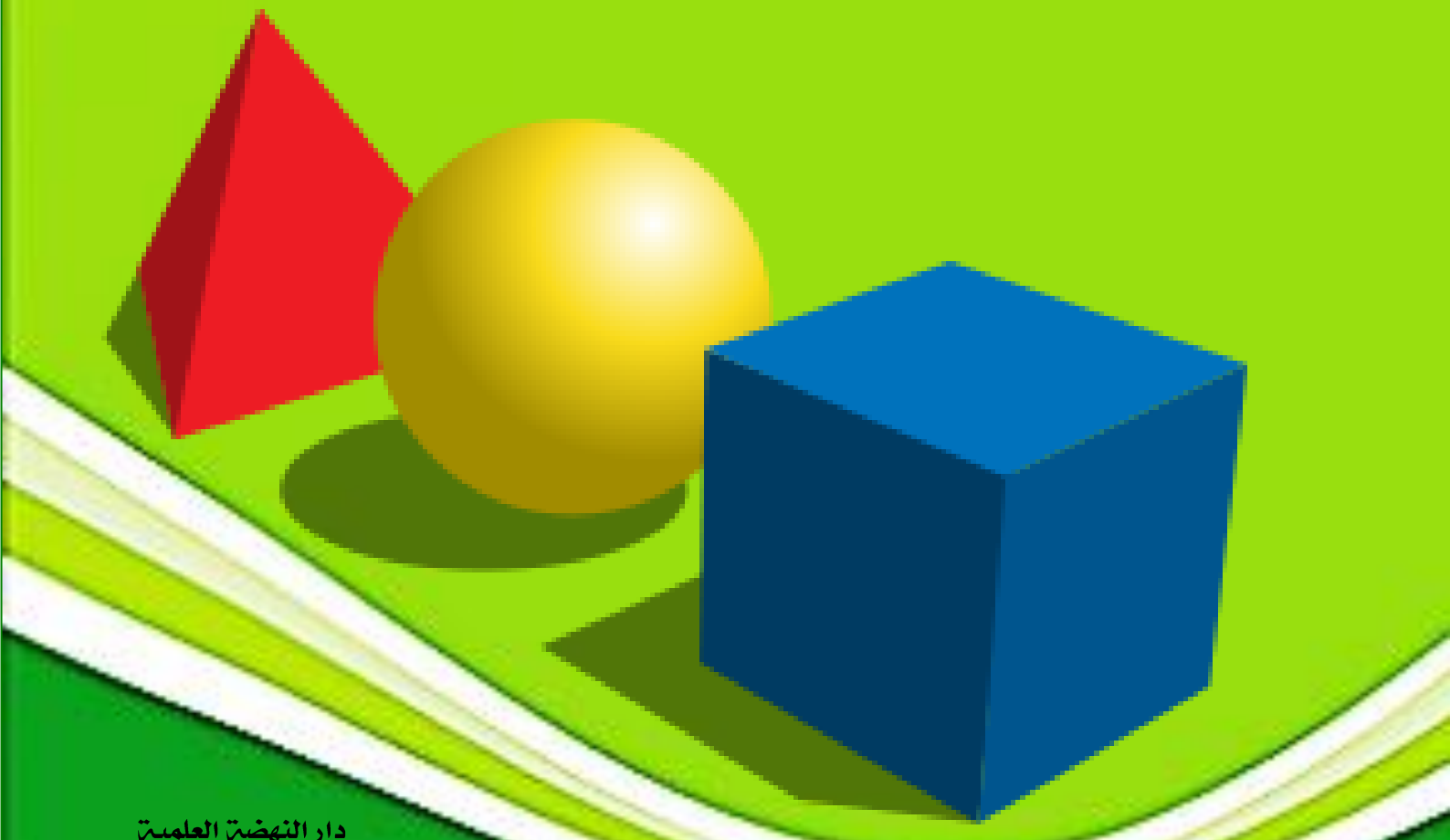

دار النهضة العلمية
1439 هـ - 2018 م

همسات وقبسات

في الدبلوماسية الإسلامية

الدكتور محمد محمود كالو

جامعة أديامان التركية

دار النهضة العلمية – أديامان - تركيا

جميع الحقوق محفوظة

دار النهضة العلمية

الطبعة الأولى

1439 هـ 2018 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونتوب اليه من جميع ذنوبنا، ونعوذ به تعالى من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنجينا من عذاب أليم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:88-89] .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ورحمته إلى العالمين، جاء بالهدى ودين الحق، بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة، فبلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح لأمته في حاضرها ومستقبلها، وجاهد في الله حق جهاده، فمن أطاع الله ورسوله فقد اهتدى، ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضلّ وغوى.

أما بعد:

فعندما نتأمل في حال العالم الإسلامي اليوم، نجده منهمكاً في دائرة صغيرة، لا يحاول أن يربط بين ما يقرؤه عن تاريخ أمجاد الإسلام وبين الواقع الأليم، وخاصة بعد أحداث الثورات العربية، وما جرَّ على الأمة من مآسٍ وكوارث، وربما ينكر بعضهم على الآخرين أن ينشغلوا بغير هذه الدائرة، كالقضايا الشائكة السياسية، فالسياسة علم شريف بخلاف ما هو مشهور من أنه فن الكذب والخداع، والسياسة جزء من الشرع الحنيف، ومصطلح (السياسة الناعمة) أو القوَّة النَّاعِمة تعتبر من العلوم الجديدة في العصْر الحديث، وهي البَديل القادِم عن السياسة الصلبة التي تَعتمد فقط على استِخدام القوَّة، ومفهومها أنَّها القدرة على الجذْب والضم، دون الإكراه أو استخدام القوَّة كوسيلة للإقناع، فالقوَّة النَّاعِمة: أن يكون للدَّولة قوة روحيَّة ومعنويَّة من خلال ما تجسِّده من أفكار ومبادئ وأخلاقٍ من خلال الدَّعم في مجالات حقوق الإنسان والبِنية التحتيَّة والثقافة والفنِّ؛ ممَّا يؤدِّي بالآخرين إلى احترام هذا الأسلوب

والإعجابِ به، ثمَّ اتِّباع مصادره، وكل هذه المعاني متضمنة في الإسلام الحنيف، ومنبعها الكتاب والسنة.

فما هي الموضوعات التي تضمنها هذا الكتاب؟

لقد قسمتُ هذا الكتاب في ثلاثة فصول، وأهم مواضيعها:

الفصل الأول: عن القيم السياسية الحضارية الإسلامية، كالقيم الحضارية في ميثاق التحالف الإسلامي، حيث فور هجرة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى المدينة المنورة كتب دستورًا تاريخيًا، اعتبره كثير من المؤرخين مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومَعلَمًا من معالم مجدها السياسي والإنساني.

وعن أصول الدبلوماسية في الإسلام، فأول من استعان بالدبلوماسية في الإسلام هو نبينا محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – إذ بعث برسلٍ إلى الشام وعمَّان والروم وفارس والبحرين ومصر والحبشة واليمن، وزوَّدهم بكتب هي وثائقُ تؤيِّد صحة انتدابِهم كما توضِّح الغرض منه.

وعن الاعتراف الدولي في العصر الحديث، فأي كيان جديد يسعى للتمتع بشخصية دولية، حتى يكون عضواً فاعلاً في المجتمع الدولي، ويحتاج لذلك إلى ثلاث مقومات، وهي: الإقليم الجغرافي، والشعب، ونظام الحكم، حتى يتحقق له الاعتراف الدولي.

وعن الحصانة الديبلوماسية إذ هي سنة نبوية، فقد أثبتت الأدلة الواضحة على العصمة لدماء الرسل والموفدين والديبلوماسيين وصيانة شخصيَّتهم من أيّ أذى حتى لو اختلفت وجهات النظر في المفاوضة معهم بل حتى لو مع الدول التي كانت تقتل رسلَ المسلمين، كما فعل مسيلمة الكذاب، كل هذا من أجل سعي الإسلام إلى بناء قواعد السِّلم العالمي وحَلِّ المشكلات بين الدول قبل أن تتطوَّر إلى نزاعات مسلحة.

وعن الشفافية وأنها مبدأ إسلامي رفيع لأنه جزء من العدالة الإسلامية، إذ يشكل أي نوع من الإخفاء أو الخداع أو محاولة التضليل مخالفة لمبادئ العدالة والإنصاف في الشريعة الإسلامية.

كما يتحدث الفصل الأول من الكتاب عن سنة التدرج في النهضة والإصلاح، فحتى خلق آدم عليه السلام مرَّ بخمسة مراحل: (التراب فالماء فالطين فالحمأ المسنون فالصلصال) ثم نفخ في الروح، فالتدريج سنة مرعية ومطردة أيضًا في الشعائر والعبادات –بما فيها أركان الإسلام– وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات؛ فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج في السنة الثانية قبل الهجرة، والصوم فرض بالمدينة المنورة، وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام.

ويتحدث عن علاقة القائد بجنده، وخاصة في المعارك، فعلى القائد أن يستشير الجنود ويحترم آراءهم ويبث الثقة فيهم وأن يشارك الجنود في الصعاب، وعلى الجنود الثقة الكاملة في القيادة الرشيدة.

وعن معايير السفير في السياسة الإسلامية، كالإيمان المطلَق بالقضية؛ والتسلح بالعلم والحكمة، والتحلي بالشجاعة والصبر، إضافة إلى شدة الذكاء والدهاء واللباقة وحضور البديهة، علاوة على الجمال والأناقة والسمت الحسن والمظهر اللائق، وأن يتقن اللغات وخاصة لغة من بعث إليهم، متصفاً بصفات المهارة والكفاءة بعيداً عن القبلية والمحسوبيات، مع التسامح واحترام العادات والتقاليد التي لا تعارض الدين.

وفي الفصل الثاني: يتحدث الكتاب عن السياسة الشرعية وإصلاح الفكر، وعدم انتقاص الآخرين، إذ إننا بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الابتعاد عن تقديس الأشخاص، فتقديس البشر يعتبر مصنعاً لإنتاج التخلف وتوزيع الجهل وزرع الاستبداد، وتعطيل مسيرة الحياة الطبيعية.

ويتحدث عن حكم الإقامة في بلاد غير المسلمين، كما لا يجوز السفر إلى تلك البلاد بالطرق غير القانونية والشرعية، أو التي تحفها المخاطر، لما في ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة.

وعن أولي الأمر، ومَن هم؟ فإن قيل: إن الأمر هنا يعني: العلم، فهي إذًا تشمل كل العلوم: القرآن، والحديث، واللغة، والعقيدة، والفقه، كما تشمل علوم السياسة والواقع، والنفس والمجتمع، والتربية والأخلاق، بل تشمل أيضًا علوم الاقتصاد والسياسة والحرب، والبيئة والمناخ، والطب والفيزياء والكيمياء، والحساب والهندسة ... ويصاحب كلَّ ذلك في كل فرد منهم: رجاحةُ عقل، وحسن فكر، وأن يكون ثقة عدلًا.

وعن ثقافة العداء للغرب، فجُلُّ نكبات عالمنا المعاصر أساسها فكري ثقافي اجتماعي، وهي في الأصل أعراض لأمراض أنتجتها عقلياتنا وقناعاتنا وتذبذب إيماننا بالقيم الإسلامية التي فُطرنا عليها والتي تنادي بحرمة الدم، وعدم الإكراه في الدين، ونبذ الحرابة، والشورى، وحرمة المال والعرض، و غيرها من القيم السامية، وبدلاً من استثمار هذا التوافق الجزئي بيننا وبين الغرب – وهو قاسم مشترك إيجابي- بدلاً من جعلها منصة انطلاق لحوار فاعل بين الحضارات، أصبح الغرب عدوَّنا الذي صنعتْه أذهاننا لنتذرع بعدائه، ونتمترس حول جاهلية عوفينا منها حين أنار الدين مغارات الجهل عبر حقب التاريخ المختلفة.

ويتحدث عن السؤال القائل: هل في الإسلام حكومة دينية؟ وحين نمعن النظر في القرآن الكريم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم لا نجد أنهما قد حدَّدَا شكلاً خاصاً بالحكومة، فالمسلمون لهم حرية اختيار الهيكل الحكومي الذي يريدونه بشرط أن يسمح بتطبيق الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، وهذه الحكومة لا يمكن أن يقال لها (الحكومة الدينية) حيث إن صلاحيتَها الوحيدة هي تطبيق أحكام الشريعة الموحى بها، وهو قانون أساسي ثابت لا يتغير، والقرآن الكريم يأمر بالشورى بين رئيس الجماعة وأعضائها في النوازل والمستحدثات، فخليفة

المسلمين ليس رئيساً دينياً، ولم يحدث- لا نظرياً ولا عملياً - أن حكم المجتمع المسلم طبقة كهنوتية؛ كما حدث في الغرب؛ وذلك لسبب واضح؛ وهو أنه لا أهلية لأي إنسان أو هيئة بتعديل الحكم الشرعي الموحى به أو إصلاحها أو إكمالها، إذ جاء الإسلام ليحرر الأفراد من الطغيان والتعصب في الحكومات.

وفي الفصل الثالث: يتحدث الكتاب عن أمشاج من شماريخ التاريخ، والرد المفصل على مَن يزعم مِن بعض أعداء الإسلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم قام بشنِّ العديد من الحروب لإجبار غير المسلمين على الدخول في الإسلام، وأن الذين اعتنقوا الإسلام دخلوا فيه بالإكراه والقهر لا عن اقتناع.

وعن أن الصحابة أمنة لهذه الأمة لا يجوز أن ينتقص من منزلتهم مهما كان السبب، إذ أجمع المسلمون من أهل السنة والجماعة على عدالتهم وفضلهم وشرفهم، وقد عَدَّ العلماء قديماً تنقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة على أهل البدع والزندقة الذين يريدون إبطال الشريعة بجرح رواتها، لأن الذين أدَّوا إلينا هذا القرآن والسنن هم أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة.!

وعن عبارات تنتشر بين الفينة والأخرى؛ وخاصة عبر وسائل التواصل الاجتماعي المعاصر، كقولهم (أميتوا الباطل بالسكوت عنه) ولكنني أرى هذه العبارة فيها نظر، وخاصة أن هذه الجملة المستلة من سياقها مخالفة لبعض المفاهيم في الآيات القرآنية الكريمة، كما أنها مخالفة لبعض الأحاديث الثابتة الصحيحة، ونسبة هذه العبارة إلى الفاروق عمر لا يصح سنداً، وفيها علل ونظر، وللأسف رددها بعض الصالحين دون تمحيص بجهل وحسن نية، متناسين أنهم أمام عدو لئيم، لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة.

ويتحدث عن عالمية الإسلام، إذ أن الإسلام منذ أيامه الأولى كان واضح المعالم بأنه دين عالمي غايته تقديم رسالة الحضارة الإسلامية بوصفها منهجاً روحياً وخلقياً ومادياً، لا يتنافى فيه الدنيوي والأخروي، بخلاف عولمة الغرب فإنه الاستعمار ذاته، وهي العولمة السلبية؛ لأن مهمتها كانت تقتصر على استغلال الموارد الطبيعية، وتوفير المواد الخام لصناعاته، والأيدي العاملة التكميلية، وتأمين سوقٍ مفتوحة لبضائعه، والعولمة تدعم برامج التغريب التي تطمح إلى طبع البلدان في كل الميادين بطابع الحضارة الغربية، فتغلغل التغريب في السلوك الفردي، والفنون والآداب، والمناهج والبرامج الدراسية والإعلام، والاقتصاد، والقوانين وغيرها.

لذلك كان علينا قراءة التاريخ لمستقبل أجمل، فقراءةُ التاريخ أو رواية أخباره ليست صنعةً سهلة، بل هو من أدقِّ الأعمال التي يمكن أن يقوم بها إنسان، فمن يقرأ المقطع التاريخي مقطوعاً عن سياقاته؛ كأنه ينظر إلى كسرة حجَر عبر مجهر، مجرداً عما يحيط به من الظروف الزمانية والمكانية والإنسانية على نحوٍ عام، ومن يجب التنبيه عليه ما يفعله بعض المؤرخين حين يحاولون تجميل التاريخ الإسلامي، بذكر الحسنات فقط وإغفال السيئات، وصنيعهم هذا خطأ منهجي واضح، إذ التاريخ البشري مزيج بين الجميل والقبيح، وهناك آخرون يرون أن التاريخ الإسلامي كله شر وفتن، وهذا غلو واضح وتزوير فاضح؛ إذ التاريخ الإسلامي هو تاريخ بشري فيه الخير والشر.

ولذلك لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف، والخلاف شر، أما الاختلاف فسنة من سنن الاجتماع، وثمرة طبيعية للاجتهاد؛ لأنه اختلاف تنوُّع لا اختلاف تضاد؛ بل هو عامل من عوامل الازدهار، ومظهر من مظاهر السعة واليسر في شريعة الله الخاتمة؛ فاختلاف العلماء في الأمة الخاتمة يقوم مقام تعدد الرسالات واختلاف التشريعات في الأمم السابقة لمناسبة أحوال أهل كل زمان ومكان، فلا بد من إحياء روح التسامح في الأمة لتتجنب التباغض؛ وبث روح الأخوة والمودة بين المسلمين في كافة أنحاء العالم.

هذه المواضيع وغيرها لأهميتها في هذا العصر الحديث أردت أن أجمعها في هذا السفر الصغير توعية لشباب الأمة من الإفراط والتفريط، وتوضيح بعض المفاهيم الخاطئة المشهورة، فالجهل عدو الإنسان ويودي به في مهاوي الردى.

وأخيراً: أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلني وإياكم من الهداة المهتدين، والصلحاء المصلحين إنه جواد كريم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بتاريخ: الجمعة 2018/7/27م

الموافق: 14 ذو القعدة 1439 هـ

جامعة أديامان – تركيا

د. محمد محمود كالو

الفصل الأول

القيم الإسلامية السياسية الحضارية

أبرز القيم الحضارية في ميثاق التحالف الإسلامي

الحضارة في اللغة العربية كلمة مشتقة من الفعل حضر، وهي القرى والأرياف والمنازل المسكونة، بخلاف البدو والبداوة والبادية، وهي تعبير عن كل منجزات أعمال الإنسان الفكرية والوجدانية والعمرانية، والحضارة في مفهومها الإسلامي تنطلق من رؤية مثالية للحياة، إذ يسعى كل مسلم، وكل مجتمع إسلامي أن يحقق هذه الرؤية ويعمل على إبرازها وتطويرها حتى تظل حية ماثلة في ضميره وتصرفاته.

ومن معالم الحضارة الإسلامية ميثاق التحالف الإسلامي في تأسيس نواة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

يقول الدكتور محمد مسعد ياقوت: "فور هجرة النبي – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلى المدينة المنورة كتب دستورًا تاريخيًا وقد أطنب فيه المؤرخون والمستشرقون على مدار التاريخ الإسلامي، واعتبره الكثيرون مفخرة من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومَعلَمًا من معالم مجدها السياسي والإنساني.

ان هذا الدستور يهدف بالأساس إلى تنظيم العلاقة بين جميع طوائف وجماعات المدينة، وعلى رأسها المهاجرين والأنصار والفصائل اليهودية وغيرهم، يتصدى بمقتضاه المسلمون واليهود وجميع الفصائل لأي عدوان خارجي على المدينة.

وبإبرام هذا الدستور –وإقرار جميع الفصائل بما فيه رئيسها الرسول–صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، صارت المدينة دولة وفاقية وصارت المرجعية العليا للشريعة الإسلامية، وصارت جميع الحقوق الإنسانية مكفولة، كحق حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، والمساواة والعدل..".

ويقول المستشرق الروماني جيورجيو: "حوى هذا الدستور (دستور المدينة) اثنين وخمسين بنداً، كلها من رأي رسول الله. خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين، وسبعة وعشرون

مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دُون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أى عام 623م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده.. "[1].

أهم عشر معالم من القيم الحضارية في ميثاق المدينة المنورة:

1- الأمة الإسلامية فوق القبلية:

قال الدستور في ذلك: "إنهم [أي الشعب المسلم] أمة واحدة من دون الناس"

وبهذا البند اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم وأنسابهم إلى جماعة الإسلام، فالانتماء للإسلام فوق الانتماء للقبيلة أو العائلة، وبهذا نقل رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – العرب من مستوى القبيلة إلى مستوى الأمة.

2- ردع الخائنين للعهود:

وفي هذا الحق كُتب البند التالي: "وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم".

وهذا نص في جواز حمل السلاح على أي فصيل من فصائل المدينة إذا اعتدى على المسلمين.

1- ك. جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله : 192.

وبموجب هذا النص حُكم بالإعدام على مجرمي قريظة – بعد معركة الأحزاب (في ذي القعدة 5 هـ/إبريل 627 م) –، لما تحالفوا مع جيوش الأحزاب الغازية للمدينة، وبغوا وخانوا بقية الفصائل، على الرغم من أنهم أبناء وطن واحد!

3- احترام أمان المسلم:

وجاء في هذا الأصل الأخلاقي البند التالي:

"وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس..".

فلأي مسلم الحق في منح الأمان لأي إنسان، ومن ثم يجب على جميع أفراد الدولة أن تحترم هذا الأمان، وأن تجير من أجار المسلمُ، ولو كان المجير أدناهم، بما في ذلك النساء، وقد قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لأم هانئ: " أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمّ هَانِئٍ ".

4- حماية أهل الذمة والأقليات غير الإسلامية:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم".

وهو أصل أصيل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، أو الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة وسلطان المسلمين، فلهم – إذا خضعوا للدولة – حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها..!

5- الأمن الاجتماعي وضمان الديات:

وجاء في هذا الأصل: "وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه".

وبهذا أقر الدستور الأمن الاجتماعي، وضمنه بضمان الديات لأهل القتيل، وفي ذلك إبطال لعادة الثأر الجاهلية، وبين النص أن على المسلمين أن يكونوا جميعًا ضد المعتدي الظالم حتى يحكم عليه بحكم الشريعة..

"ولا شك أن تطبيق هذا الحكم نتج عنه استتباب الأمن في المجتمع الإسلامي منذ أن طبق المسلمون هذا الحكم".

6- حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر مكفولة لكل فصائل الشعب:

وجاء في هذا الأصل: "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته".

ومعنى يوتغ: أي يفسد ويهلك.

7- الدعم المالي للدفاع عن الدولة مسؤولية الجميع:

وجاء في هذا الأصل: "وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ".

فعلى كل الفصائل بما فيها اليهود أن يدعموا الجيش ماليًا وبالعدة والعتاد من أجل الدفاع عن الدولة، فكما أن المدينة وطن لكل الفصائل، كان على هذه الفصائل أن تشترك جميعها في تحمل جميع الأعباء المالية للحرب.

8- وجوب الدفاع المشترك ضد أي عدوان:

وجاء في هذا الأصل: "وإن بينهم النصر على من دهم يثرب "

"وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة "

وفي هذا النص دليل صريح على وجوب الدفاع المشترك، ضد أي عدوان على مبادئ هذه الوثيقة.

9- النصح والبر بين المسلمين وأهل الكتاب:

وجاء في هذا الأصل: "وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم "

فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة –مهما اختلفت معتقداتهم– هو النصح المتبادل، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف.

10- حرية كل فصيل في عقد الأحلاف التي لا تضر الدولة:

وجاء في هذا الأصل: "وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه "

ووجوب نصرة المظلوم: وجاء في هذا الأصل :"وإن النصر للمظلوم".

هذه بعض معالم الحضارة الإسلامية في ميثاق التحالف الإسلامي بالمدينة المنورة، تبين لنا كيف سبق النظامُ الإسلامي جميع الأنظمة العالمية في إعلاء قيم التسامح والتكافل والحرية ونصرة المظلوم.

إن حضارتنا الإسلامية تراث مثالي، وواقع تعيشه الأمة الإسلامية بقيم الإسلام الحنيف، ولا ننسى أن هذا الميثاق كُتب في زمان لم تكن حقوق المواطنين مرعية في الامبراطوريتين الرومانية والفارسية فضلاً عن قبائل العرب في شبه جزيرتهم.

فقد حفظ الميثاق للمواطنين من أهل الكتاب وضعاً متميزاً في الدولة الإسلامية، وحصَّن حقوقهم بكونهم في جوار الله وفي ذمة رسول الله، وقد ختم ميثاق التحالف الإسلامي بقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "وأن الله جار لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله".

أصول الدبلوماسية في الإسلام

الدبلوماسية: مأخوذة من الكلمة اللاتينية diploma ، والتي تعني وثيقة رسمية تتضمن صفة المبعوث والمهمة الموفد بها، والتوصيات الصادرة بشأنه من الحاكم؛ بقصد تقديمه وحسن استقباله أو تيسير انتقاله بين الأقاليم المختلفة، وكانت هذه الشهادات أو الوثائق عبارة عن أوراق تمسكها قطع من الحديد (تسمى دبلوما).

وأول من استعان بالدبلوماسية في الإسلام هو نبينا محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – إذ بعث برسلٍ إلى الشام وعمَّان والروم وفارس والبحرين ومصر والحبشة واليمن، وزوَّدهم بكتب هي وثائقُ تؤيِّد صحة انتدابِهم كما توضِّح الغرض منه.

وقد عرَف الإسلام في عهد الرَّسول الكريم نظامَ استقبال السُّفراء والرسل، جاء في سيرة ابن هشام: أنَّ الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – والصَّحابة – رضوان الله عليهم – كانوا يلبَسون أحسن الثِّياب عند استقبالهم الوفود والرسل.

غيرَ أن الخليفة عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه لم يتقيَّد بهذا الأسلوب من الرسميَّات ومارس البساطة؛ حتى إنَّ سفير قيصرِ الروم لَمَّا أوفده وجده نائمًا تحت ظل شجرة، والحق أنَّ الخليفة عمر قد أراد بذلك أن يُرِيَ سفير قيصر الروم؛ الفرقَ الشاسع بين البساطة التي يعيشها خليفة المسلمين، وبين الأبَّهة والتَّرف اللذين يعيشُهما القيصر البيزنطي، ويُضرب بهما الأمثال، واللذان لا تزالُ تعاني الدُّبلوماسية العالمية من تأثيرهما فيها.

وكان صاحبُ الرسالة يستقبل الوفود باحتفالٍ وَفْق المراسيم والعادات، وكان سفراءُ الدول الإسلامية يحترمون تقاليدَ الدول التي يُوفدون إليها ولا يخرجون عنها، إلا إذا تعارضت مع أحكام الدين، كعادة السُّجود للملوك التي كانت شائعةً في العهود الغابرة.

وكان المسلمون يعترفون للمبعوثِ الأجنبي بالحصانة دون حصولِه على وثيقة أمان، ولم يقصُرِ المسلمون صفةَ المفاوض الدُّبلوماسي على ممثِّلي الملوك والحكومات، بل كان التسامح الإسلامي يتَّسع إلى حد إضفاء صفةِ المفاوض على كلِّ من يجادل في موضوعٍ يخصُّ الدعوة الإسلامية، حتى إنَّ هذا التسامح شمل بأمرٍ من النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – مبعوثيْ مسيلمةَ الكذَّابِ مع أنهما أساءا القول.

وهذا أبو رافعٍ الذي جاء إلى النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – موفَدًا من قريشٍ، وبعد مُثوله بين يديه، آمَنَ وعزم على ألاَّ يرجع، فقال له النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: (ارجعْ، فإن كان في قلبِك الذي فيه الآن، فارجعْ إلينا)، وهذا يدلُّ على مدى تقدير الرَّسول للأمانة التي يجبُ أن يتخلَّق بها السفير، وإلزامه بتأديتِها بإخلاص.

ومن أهم المصادر عن تاريخ دبلوماسية الإسلام، الكتاب الذي وضعه أبو عليٍّ الحسين بن محمد المعروفُ بابن الفرَّاء، واسمه: "رسُلُ الملوك ومن يصلح للرسالة والسِّفارة"، وهو يتناول بالتَّفصيل كيف رفع فقهاءُ المسلمين منزلةَ الرسول والسفير، واعتبروا أنها تستمدُّ حرمتها من مكانةِ الرُّسل الذين يبعث بهم الله – عز وجل – إلى عباده ليبلغوا رسالته، ناهيًا عن التعرُّض لمهمتهم والمساس بأشخاصِهم، فقد استنبطوا من نواهي الدين وأوامره تجاه تعظيم الرسل أساسًا لمعاملة رسل الملوك والخلفاء معاملة كريمةً؛ مستشهدين بالآيات الكريمة العديدة التي يحتويها القرآن في هذا الصَّدد، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل: 15–16]، ومنها قوله سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: 4]، ويعلِّق ابن الفرَّاء على هذه الآية الكريمة مستنتجًا أن يكون السَّفير قادرًا على تفهُّم لغة مَنْ يرسل إليهم.

وقد اعتبر الإسلام المفاوضة شرطًا أساسيًّا لا بدَّ من توفُّره قبل اللجوء إلى الحرب؛ وذلك اتِّباعًا لِما جاء في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 15].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا ﴾ [القصص: 59]، ويعلِّق ابنُ الفراء على هاتين الآيتين بقوله :

"وقد فضَّل الله – سبحانه – المرسَلين من أنبيائه على غير المرسلين؛ لتبليغ الرسالة، وتحمُّل ثقل الأمانة، والصبر على أذى الكافرين، وتكذيب الجاحدين".

وأورد ابن الفراء ما أسماه بالحكمة التي تقول: (إنَّ الكتاب يدٌ، والرسول لسان)، كما استشهد بقول عبدالله بن جعفر بن أبي طالب:

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلاً فَأَرْسِلْ حَكِيمًا وَلاَ تُوصِهِ

وقد جاء في كتاب "الخراج" للإمام أبي يوسف، و"السير الكبير" للإمام محمد بن الحسن الشيباني، من إعفاء الدُّبلوماسيين من الضرائب، إلا إذا كان ما لديهم يستهدف التِّجارة فتؤخذ الرسوم عليه.

وكان من مهمة السفراء أن يعلَموا حالة الطرُق والأمكنة التي توجد فيها المروج والأعشاب والحشائش للعلف، وكذلك قوَّة الجيش ومَؤونته في العَدَد والعتاد وفي الدِّفاع والهجوم، وأن يعرفوا كلَّ ما يتعلَّق بأمور البلاد الأجنبية من النواحي الشخصية والعامة، كما أنَّ الدُّبلوماسية الإسلامية في العهد العباسي كانت تتوخَّى من سفاراتِها أغراضًا علميَّة.

ونختم الحديث بما جاء في كتاب (أخلاق الملوك) للجاحظ تحت عنوان "آداب السَّفير" ما نصه:

"ومن الحقِّ على الملك أن يكون رسولُه صحيح الفِطرة والمزاج، ذا بيانٍ وعبارة، بصيرًا بمخارج الكلام وأجوبتِه، مؤدِّيًا لألفاظ الملِك ومعانيها، صادق اللَّهجة، لا يميل إلى طمَعٍ أو طبْع، حافظًا لِما حمِّل، وعلى الملك أن يمتحنَ رسولَه محنةً طويلة قبل أن يجعلَه رسولاً".

الاعتراف الدولي في العصر الحديث

الاعتراف لغة: هو القبول أو الموافقة على وجود واقعة أو موقف أو حالة.

واصطلاحاً: هو كما عرفه معهد القانون الدولي في دورة انعقاده في بروكسل عام 1936 (بأنه عمل حر تقر بمقتضاه دولة أو مجموعة من الدول وجود جماعة لها تنظيم سياسي في إقليم معين مستقلة عن كل دولة أخرى، و قادرة على الوفاء بالتزامات القانون الدولي العام ، و تظهر الدول بالاعتراف نيتها في عدِّ هذه الدولة عضواً في الجماعة الدولية "[1].

وعرّفَ مَجمع القانون الدولي الاعتراف بالدولة بأنه " التصرف الحر الذي يصدر عن دولة أو عدة دول للإقرار بوجود جماعة بشرية ، فوق إقليم معين ، تتمتع بنظام سياسي و استقلال كامل وتقدر على الوفاء بالتزامات القانون الدولي"[2].

إن سعي أي كيان جديد للتمتع بشخصية دولية، حتى يكون عضواً فاعلاً في المجتمع الدولي، يحتاج إلى ثلاث مقومات، وهي: الإقليم الجغرافي، والشعب، ونظام الحكم، وذلك حتى يتحقق له الاعتراف الدولي.

وإن اعتراف الدول بكيان جديد يعنى اعترافاً بنظام الحكم فيه، وهو محصلة طبيعية، ومكملة لخطوة الاعتراف بهذا الكيان، كعنصر متمم لنشوء الدولة، ويعتبر هذا الاعتراف حقاً لشعب تلك الدولة في تقرير مصيرها[3].

وينقسم الاعتراف الذي تمارسه الدول- في زماننا- إلى ثلاثة أنواع:

1- **الاعتراف الواقعي**: ويعني الاعتراف بالحقيقة القائمة، وهي شكل من أشكال الاعتراف يسبق الاعتراف الكامل القانوني بالدولة، وتلجأ إليه الدول عندما يكون لديها ظلال من الشك حول شرعية قيام نظام جديد، خاصة عندما تكون عوامل قيام هذا النظام مرتبطة

1- انتصار حسين الحصائرى، الاعتراف الدولي، بحث مقدم فى أكاديمية الدراسات العليا بليبيا.

2- سهيل الفتلاوي ، في القانون الدولي العام – دار الثقافة للنشر و التوزيع –الاردن ،عمان – الطبعة الأولى – 2009.

3- الدبلوماسية والقانون الدبلوماسي، للشيخ خالد حسن، (ط1)،عمان،1999م، ص 141-147.

بالعنف والقوة والانفصال. ولكن لا يمنع مثل هذه العوامل من وجود تواصل مع هذه الدولة، بحدود معينة[1].

2- **الاعتراف الضمني**: وهو أقل مرتبة من الاعتراف الواقعي، وإن كان ثمة قرب بينهما. وهو اعتراف بحقيقة قائمة حتى وإن كانت مرفوضة، وهو مجرد إقرار غير مباشر بوجود كيان ما، دون أن يتيح هذا الإقرار قيام أي نوع من العلاقات بأي شكل من الأشكال.

وتتجنب الدول عادة إجراء أي لقاء مع دبلوماسيين من هذا الكيان، حتى لا يفسر ذلك بأنه اعتراف قانوني بهذه الدولة[2].

3- **الاعتراف القانوني**: ويعني استكمال الكيان الجديد لكل الشروط والمقومات القانونية المطلوبة لقيام الدولة من إقليم جغرافي محدد، ومعترف به، ومن شعب أصيل قائم ينتسب لهذا الإقليم، ومن حكومة مستقرة ذات سيادة، ويصبح الاعتراف في هذه الحالة أمراً محتوماً، خاصة إذا جاء نشوء الكيان الجديد بالطرق المشروعة، سلمية، أو من خلال القتال المشروع ضد الاحتلال[3].

وهناك وسائل تمارسها الدول للتعبير عن إرادتها للاعتراف القانوني بكيان ما، منها:

أ. أن يتم من خلال مذكرة يرسلها رأس الحكم في دولة إلى نظيره في الكيان الجديد.

ب. أن يتم الاعتراف ضمنياً، وذلك من خلال الدخول في إجراءات إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الكيان الجديد، أو من خلال إبرام الاتفاقيات والمعاهدات.

ج. أن يتم عن طريق تبادل رسائل التهنئة، وتقديم أوراق اعتماد جديدة لمبعوث الدولة، وذلك في حالات قيام تغيير في شكل نظام الحكم، إذا كان التغيير يقتضي الاعتراف بالوضع الجديد[4].

1- الدبلوماسية والقانون الدبلوماسي، للشيخ خالد حسن: ص147-148.

2- المصدر السابق: ص149.

3- المصدر السابق: ص149-150.

4- المصدر السابق: ص150.

ومن خلال ما تقدم يتبين أن تبادل السفراء والمبعوثين هو أسلوب تستخدمه الدول للتعبير عن مقصدها في الاعتراف القانوني بدولة أو كيان جديد.

فهل هناك ما يدل على مشروعية هذا الأسلوب؟

إن المتتبع للسفارات النبوية يرى أن من المقاصد التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوخاها في سفاراته إلى الدول القائمة في زمانه، هو تحقيق الاعتراف المتبادل بين الدول الإسلامية بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، وبين غيرها من الدول، يظهر هذا من خلال:

1- سفاراته صلى الله عليه وسلم إلى الدول القائمة في زمانه، فقد أرسل إلى هرقل دحية بن خليفة الكلبي بكتاب جاء فيه (من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم...) [البخاري] وأرسل إلى المقوقس بكتاب جاء فيه (من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط...)[1] وأرسل على كسرى بكتاب جاء فيه (من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس...)[2] فدلالة ما تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم خاطب هؤلاء الزعماء بما هم عليه من الرئاسة والتسلط على أقوامهم، فخاطب هرقل بعظيم الروم، وكذا المقوقس بعظيم القبط، وكذا كسرى بعظيم فارس، وأثبت له لقبه وهو كسرى، فإن ملك الفرس بلقب بكسرى كما أن ملك الروم يلقب بقيصر[3].

كل هذا يدل على نوع اعتراف من النبي صلى الله عليه وسلم بحقيقة قائمة في زمانه وكانت سفارته إليهم دليلاً على هذا الاعتراف. بل إن مجرد بعث السفير، ثم قبوله في الدولة المبعوث إليها يعد دليلاً على هذا المقصد، وإن لم يصرح به.

2- وقد حصل للنبي صلى الله عليه وسلم من خلال هذه السفارات بعض مما أراد، فقد اعترفت دولة الروم، وكذا دولة القبط، بدول الإسلام الفتية، بينما رفضت دولة فارس هذه الفكرة، وعبرت عن هذا الرفض بتمزيق الكتاب النبوي وعدم احترام السفير"[4]، ومما يدل

1- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، (ط3) بيروت 1969م، دار الإرشاد، ص105.
2- المصدر السابق، ص 110.
3- انظر في اللقب: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري،(ط1) (13م)دار الريان، القاهرة، 1986م، ج1، ص44.
4- ابن حجر، فتح الباري، ج1، ص58.

على تحقيق الاعتراف من قبل دولتي الروم والقبط بدولة الإسلام بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، ما يأتي:

أ. تعظيم الكتاب المبعوث مع السفير من قبل النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن حجر نقلاً عن السهيلي:" أنه بلغه أنَّ هرقل وضع الكتاب في قصبةٍ من ذهب تعظيماً له، وأنهم لم يزالوا يتوارثونه، حتى كان عند ملك الفرنج الذي تغلب على طليطلة، ثم كان عند سبطه، قال: فحدثني بعض أصحابنا أن عبد الملك بن سعد أحد قواد المسلمين اجتمع بذلك الملك فأخرج له الكتاب، فلما رآه استعبر، وسأل أن يمكنه من تقبيله، فامتنع"[1].

قال ابن حجر رحمه الله:" وأنبأني غير واحد عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي، قال: حدثني سيف الدين فليح المنصوري، قال: أرسلني الملك المنصور قلاوون ملك الغرب بهدية، فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبلها، وعرض علي الإقامة عنده فامتنعت، فقال لي: لأتحفنك بتحفةً سنية، فأخرج لي صندوقاً مصفحاً بذهب، فأخرج منه مقلمة ذهب، فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه، وقد التصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا، أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ، ونعظمه، ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا. ويؤيد هذا ما وقع في حديث سعيد بن أبي راشد، [قال ابن حجر:(وفي المسند من طريق سعيد بن أبي راشد عن التنوخي، وذكر رسول هرقل، قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك فبعث دحية إلى هرقل...)[2].

وهذه المرة الثانية التي يبعث فيها النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل. فأرسل إليه هرقل برسولٍ من قبيلة تنوخ] أن النبي صلى الله عليه وسلم. عرض على التنوخي رسول هرقل الإسلام، فامتنع، فقال له:" يا أخا تنوخ إني كتبت إلى ملككم بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير".

وكذلك أخرج أبو عبيد في كتاب الأموال من مرسل عمير بن اسحق، قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم

1- فتح الباري، ابن حجر، ج1، ص58.
2- فتح الباري، ج1، ص57

رفعه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما هؤلاء فيمزقون، وأما هؤلاء فستكون لهم بقية"، ويؤيده ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه جواب كسرى قال:(مزق الله ملكه). ولما جاءه جواب هرقل، قال: (ثَبَّتَ الله مُلْكَه). والله أعلم[1].

ب. إرسال كل من هرقل والمقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم بسفراء يحملون الخطابات الودية والهدايا كإشارة لقبول سفارة النبي صلى الله عليه وسلم واعترافاً منهم بدولة الإسلام.

فعن سعيد بن أبي راشد، قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحمص، وكان جاراً لي قد بلغ الفند [شيخ كبير في السن، ومثله قوله تعالى على لسان يعقوب رداً على أبنائه لما كانوا ينكرون عليه ما يقول ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾[2] يعني لولا أنكم تقولون إني شيخ كبير!] أو قرُب. فقلت:" ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل؟".

وفي الرواية الثانية: عن سعيد بن أبي راشد (مولى لآل معاوية)، قال قدمت الشام، فقيل لي: في هذه الكنيسة رسول قيصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فدخلنا الكنيسة، فإذا أنا بشيخ كبير. فقلت له: أنت رسول قيصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: نعم. قلت: حدثني عن ذلك. قال: بلى (قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك. فبعث دحيةً الكلبي إلى هرقل. فلما أن جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، دعا قسيسي الروم وبطارقتها، ثم أغلق عليه وعليهم باباً، فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إلي يدعوني إلى ثلاث خصال:

"يدعوني أن أتبعه على دينه، أو على أن نعطيه مالنا على أرضنا والأرض أرضنا، أو أن نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب: ليأخذن ما تحت قدمي، فهلُمَّ نتبعه على دينه، أو نعطيه ما لنا على أرضنا."

1- فتح الباري، ج1، ص58.
2- سورة يوسف:94.

فنخروا نخرة رجل واحد، حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا:" تدعونا إلى أن ندع النصرانية، أو نكون عبيد الأعرابي جاء من الحجاز؟" فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده، أفسدوا عليه الروم... قال:" إنما قلت ذلك لكم لأعلم صلابتكم على أمركم".

ثم دعا رجلاً من عرب تجيب كان على نصارى العرب، فقال:" ادع لي رجلاً حافظاً للحديث، عربي اللسان، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه". فجاء بي. فدفع إلي هرقل كتاباً، فقال:" اذهب بكتابي إلى هذا الرجل..."[1].

وفي رواية أبي عبيد عن بكر بن عبد الله المزني[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام. فلما أتاه رسولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمر منادياً، فنادى:" إلا أن قيصر ترك النصرانية واتبع دين محمد صلى الله عليه وسلم". فأقبل جنده قد تسلحوا، حتى أطافوا بقصره، فأمر مناديه فنادى:" إلا أن قيصر إنما أراد أن يجربكم كيف صبركم على دينكم. فارجعوا، فقد رضي عنكم". ثم قال لرسول النبي صلى الله عليه وسلم:" إني أخاف على ملكي" وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إني مسلم" وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ الكتاب:" كذب عدو الله، ليس بمسلم، ولكنه على النصرانية". قال: وقسم الدنانير بين أصحابه، قال أبو عبيد: فأرى الدنانير التي وصلت إليه من هرقل، إنما وصلت إليه بتبوك[3].

وقد نقل محمد حميد الله رواية أخرى شبيهة بما تقدم في جواب إمبراطور الروم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بلفظ:(إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم. وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك)[4].

1- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص58.

2- قوانين الوزارة، للماوردي، ص 208، والأحكام السلطانية، ص 25.

3- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص86.

4- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي، ص82، نقلاً عن اليعقوبي، ج2، ص84. وفريدون بك، منشآت السلاطين، ج1، ص30.

أما المقوقس عظيم القبط فقد أجاب بأحسن جواب، وأتحف النبي صلى الله عليه وسلم بالهدايا[1].

وقد جاء جوابه على هذا النحو: (لمحمد بن عبد الله من المقوقس: سلام، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام. وقد أكرمت رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها. والسلام)[2].

أما (سيرين) فقد أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت، فولدت له عبد الرحمن بن حسان[3].

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بأهل مصر، قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري أن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إذا فتحتم مِصْرَ فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمةً ورحماً"[4].

إن السفارة وسيلة لتحقيق الاعتراف بالدولة الإسلامية، وأن هذا المقصد مشروع ومطلوب، فقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن سعادته بجواب هرقل والمقوقس وإن لم يُسْلِما، تمثل ذلك بوصفه لهرقل بأن ملكه يثبت، ووصايته بأهل مصر، كما عبَّر عن استيائه وغضبه من كسرى بدعائه عليه بتمزيق ملكه، ولو كان المقصد الوحيد المطلوب من السفارة النبوية هو دخول هؤلاء في الإسلام، لدعا النبي صلى الله عليه وسلم عليهم جميعاً، لأنهم في الكفر سواء، وقد قال صلى الله عليه وسلم عن هرقل لما ادعى الإسلام (كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ ، لَيْسَ بِمُسْلِمٍ ، وَلَكِنَّهُ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ)[5].

ثم إن أخذ "العلم بوجود سلطة في دار الحرب، لم يكن يعني الاعتراف بها بالمعنى الذي نفهمه اليوم، لأن الاعتراف يعني ضمناً: قبول شعوب غير مسلمة ذات سيادة على أنها مساوية للسيادة الإسلامية، ضمن أحكام الشرع الإسلامي... وحالة عدم الاعتراف هذه لا تعني- كما هو الحال في هذا الزمان- أن

1- سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، عبد الملك بن هشام (ت213 هـ/828م (تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد)،(ط1)، دار الفكر، بيروت، لبنان،1981م، ج1، ص4.

2- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية، ص107.

3- انظر: ابن هشام، السيرة، ج3، ص352.

4- محمد عبد الحي الكتاني، (1996م)، التراتيب الإدارية، (ط2)، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ج1، ص183.

5- الأموال، القاسم بن سلام، رقم الحديث: 537.

المفاوضات المباشرة يجب أن تتقطع، أو أن المعاهدات لا يمكن عقدها بين الطرفين... وأقرب شيء إلى هذا الوضع، هو ما يعرف في القانون الدولي المعاصر بالاعتراف بالتمرد أو العصيان. وهذا النوع من الاعتراف، لا يمنع الاعتراف بالأمر الواقع فيما بعد، كما أنه لا يمنع الاعتراف القانوني، ولا يمثل الموافقة أو المصادقة على الحكم المتمرد..."[1].

إذن سفاراته صلى الله عليه وسلم كانت ولا تزال مورداً ثرياً للفكر الدبلوماسي العالمي والإسلامي بشكل خاص، إذ فعل النبي صلى الله عليه وسلم موضع استدلال المجتهدين والعلماء.

1- القانون الدولي الإسلامي (كتاب السير للشيباني) بتحقيق: مجيد خدوري، ص24.

الحصانة الديبلوماسية سنة نبوية

جاء الإسلام بنظامه العادل وتشريعاته القائمة على الاحترام، والمساواة، والكرامة الإنسانية، وشملت نظم الدولة الإسلامية الموفدين، والسفراء، والديبلوماسيين الوافدين إليها بالأمان والسلام طوال مدة بقائهم في بلادهم حتى يعودوا مطمئنين إلى أوطانهم.

إذ من المعلوم في الفقه الإسلامي أن ثبوت الأمان للموفد من قومه، أو دولته إلى بلاط الدولة الإسلامية نافذ المفعول بمجرد دخوله إلى الديار الإسلامية إذا ثبت أنه رسولٌ موفد من قومه ولا يكلّف إقامة البيّنة، لذا اكتفى الفقهاء بالعلامة وهي أن يكون معه كتاب من حاكمِ بلاده، فإذا أخرج الكتاب فالظاهر أنه صادق والبناء على الظاهر واجب فيما لا يمكن الوقوف على حقيقته، وهنا لا يُتَعَرَّض لشخصه بسوء حتى يعود إلى بلاده، لأن أمر القتال والصلح لا يتمُّ إلا بالرُّسُل فلا بدَّ من تحقيق الأمان لهم لتحقيق الغرض من إرسالهم.

فقد جاء في كتاب "شرح السير الكبير": "فَإِنْ وَجَدَ الْمُسْلِمُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ الْمَلِكِ دَخَلْت بِغَيْرِ أَمَانٍ، فَإِنْ كَانَ مَعْرُوفًا بِالرِّسَالَةِ، أَوْ أَخْرَجَ كِتَابَ الْمَلِكِ مَعَهُ إلَى الْخَلِيفَةِ فَهُوَ آمِنٌ؛ لِأَنَّ مَا لَا يُمْكِنُ مِنْ الْوُقُوفِ فِيهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ يَجِبُ الْعَمَلُ فِيهِ بِغَالِبِ الرَّأْيِ"[1].

وقد تناول الفقهاء – رحمهم الله – مفهوم الحماية والرعاية لهؤلاء فثبتت الأدلة الواضحة على العصمة لدماء الرسل والموفدين والديبلوماسيين وصيانة شخصيَّتهم من أيّ أذى حتى لو اختلفت وجهات النظر في المفاوضة معهم، وتكلم المبعوث الموفد والديبلوماسي القادم إلى أرض الدولة الإسلامية بكلام لا يتفق مع احترام عقائد المسلمين مما يوجب قتلَه أو فشل المبعوثين السياسيين في القيام بمهمتهم، فيظل لهم حق التمتع بالحماية والحصانة حتى يعودوا إلى بلادهم التي يأمنون فيها، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة والأسوة الحسنة في المعاملة الكريمة والحماية والرعاية العظيمة إذ «لما جَاءَ اِبْن النَّوَّاحَة وَابْن أَثَال رَسُولَا مُسَيْلِمَة إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُمَا أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَا نَشْهَد أَنَّ مُسَيْلِمَة رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

1- شرح السير الكبير، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: 483هـ)، الشركة الشرقية للإعلانات1971م، صفحة 1789.

آمَنْت بِاَللَّهِ وَرَسُوله: لَوْ كُنْت قَاتِلًا رَسُولًا لَقَتَلْتُكُمَا. قَالَ عَبْد اللَّه: فَمَضَتْ السُّنَّة أَنَّ الرُّسُل لَا تُقْتَل. » [أخرجه أحمد في المسند].

هذا الموقف العظيم من الرسول صلوات الله وسلامه عليه الذي اتخذه في عدم التعرض لرسل مسيلمة الكذّاب على الرغم من أنهم أقروا بصدق مسيلمة؛ وهو الذي قتل رسولَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم إليه، هذا الحديث شكل الأساس لسياسة عالمية في عدم التعرض للرسل الذين يقومون بنقل المراسلات بين الدول على الرغم من شدة الخلافات بينها، وقد التزم المسلمون بهذه السنة النبوية على مر العصور حتى مع الدول التي كانت تقتل رسلَ المسلمين، كل هذا من أجل سعي الإسلام إلى بناء قواعد السِّلم العالمي وحَلِّ المشكلات بين الدول قبل أن تتطوَّر إلى نزاعات مسلحة، وهذه قضية يجب أن يفخَر بها كلُ مسلم ومسلمة لما كان لها من الأثر الكبير في تطوير العمل الدبلوماسي على مرِّ العصور.

وعندما تطور العمل الدبلوماسي في العصر الحديث نشأت الحاجة إلى تأصيل قواعده وتنظيمه على شكل اتفاقيات دولية فظهرت اتفاقيتي فيينا للعمل الدبلوماسي والقنصلي، وكان حديث الرسول بالنهي عن قتل الرسل هو الأساس الذي صيغت بموجبه قواعد الحماية والحصانة الدبلوماسية في العلاقات الدولية، فعلى سبيل المثال فقد نصت المادة 29 من إتفاقية (فيينا) للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961م "شخص الممثل الدبلوماسي حرمة – فلا يجوز القبض عليه أو حجزه- وعلى الدولة المعتمد لديها أن تعامله بالاحترام اللازم له، وعليها أن تتخذ كافة الوسائل المعقولة لمنع الاعتداء على شخصه أو حريته أو على إعتباره"، كما نصت المواد التالية على حرمة المباني الدبلوماسية مثل السفارات والقنصليات.

لقد قرَّر الإمام السرخسي أن: "الرُّسُلَ لَمْ تَزَلْ آمِنَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَهَذَا لِأَنَّ أَمْرَ الْقِتَالِ أَوْ الصُّلْحِ لَا يَتِمُّ إلَّا بِالرُّسُلِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَمَانِ الرُّسُلِ لِيُتَوَصَّلَ إلَى مَا هُوَ الْمَقْصُودُ"[1].

وعلى هذا نهج الحكام المسلمين وولاة أمر الدولة الإسلامية على مر السنين والقرون مسترشدين في ذلك سُنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

«أَنَّهُ أَقْبَلَ بِكِتَابٍ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أُلْقِيَ فِي قَلْبِي الإِسْلامُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي وَاللَّهِ لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

1- المبسوط: السرخسي، ج10، ص92 - 93، دار المعرفة، بيروت، ط2.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ ، وَلا أَحْبِسُ الْبُرُدَ ، وَلَكِنِ ارْجِعْ ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِي قَلْبِكَ الآنَ ، فَارْجِعْ " ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ إِنِّي أَقْبَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَسْلَمْتُ . قَالَ بُكَيْرٌ : وَأَخْبَرَنِي أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ قِبْطِيًّا » [أخرجه أبو داود].

وقد سار على هذا النهج المحمدي الإنساني خلفاء وسلاطين وملوك وأمراء وعظماء حكام المسلمين في المحافظة على حماية الموفدين والديبلوماسيين. قال التابعي الجليل سعيد بن جبير: " جاء رجل من المشركين إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقال: يا خليفة المسلمين، إن أراد الرجل منا أن يأتي بحاجة قتل، فقال علي رضى الله عنه: لا، لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[1].

فقد استدل الصحابي الجليل خليفة المسلمين علي كرم الله وجهه بعدم جواز قتل المشرك القادم في حاجة إلى دار الإسلام بتلك الآية، ومن الحاجات التي يقدم إليها المشركون لدار الإسلام تبليغ الرسائل.

وما يكشف عن نبل الإسلام وكريم أخلاق السياسة للدولة الإسلامية احترامها للوضع القانوني الخاص بمبعوثي الدول الأخرى، أنه في الوقت الذي كان يقابل فيه سفراء هذه الدول بالاحترام ويحاطون بالحماية الكاملة حتى ولو خرجوا على القواعد الدولية في مخاطبة رؤساء الدول، كان سفراء الإسلام ورسل رسول السلام صلى الله عليه وسلم إلى الدول غير الدول الإسلامية يعاملون أسوأ معاملة، من ذلك أن ملك الفرس (خسرو) قطع الخطاب الذي أرسله إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وداسَه بأقدامه؛ ونجا حاملُه من القتل بأعجوبة، كما أن السفراء الذين أرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أميرَيْ الغساسنة عُومِلوا أسوأَ معاملة، ومبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حاكم (باسورا) الروماني قُتِل على يَدِ هذا الأخير.

وفي مقابل هذه المعاملة الوحشية والسلوك المشين أكرم الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوث المقوقس عظيم القبط وقَبِل هداياه، وأكرم رسولَ هرقل، وقد أثرت هذه المعاملة الحسنة في بعض الرسل فدخلوا في الإسلام لما يرؤنه من حُسن المعاملة مما يدل على التسامح، والأمان والرعاية التي جاء بها الإسلام وشموله وعدالته ووفائه بالعهود واحترامه للمواثيق وتكريمه للإنسان.

1- الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ج8، ص139.

لقد صدق (لوبون) في كتابه حضارة العرب حينما قال: " إنّ العالَم لم يعرف فاتحين أعدل ولا أرحم من المسلمين" والحق ما شهدتْ به الأعداء..!

الشفافية مبدأ إسلامي رفيع

أول منظمة للشفافية العالمية تأسست عام ١٩٩٣م وأمانتها العامة في برلين (بألمانيا)، كما أن هيئة النزاهة العامة: وهي مؤسسة حكومية مستقلة تأسست سنة ٢٠٠٤م، إلا أن الإسلام سبق كل هذه التشريعات العالمية وأهل الحضارات القديمة والمعاصرة في وضع ضوابط ومبادئ لضبط ايقاع الحياة اليومية في مختلف المجالات الحياتية، ولعل من أفضل وأجمل هذه الضوابط: قضية الشفافية والعدل بين سائر البشر دون نظر إلي اللون أن الجنس أو الدين، أو غنى أو فقر، فكلهم في ميزان العدل سواء.

تعريف الشفافية:

الشفافية في اللغة: الشف بفتح الشين الستر الرقيق الذي يبدي ما وراءه من الجسم ويظهره لرقته، يقال شَفَّ الثوب؛ أي رقَّ. وثوب شَفٌّ؛ أي رقيق يستَشفُّ ما وراءه؛ أي يبصر.

والشفَافِيةَ: قابليّة الجسم لإظهار ما وراءه (مصدر صِنَاعِيٌّ) شفَافية البلّور، ويستعار للشّخص الذي يظهر ما يبطن، فيقال له: رجل ذو شفّافيّة، تَحَدَّثَ بِشَفَافِيَّةٍ: بِوُضُوحٍ تَامٍّ، تَمَيَّزَتْ مَشَارِيعُهُ وَخُطَطُهُ بِالشَّفَافِيَّةِ.

والشفافية اصطلاحاً هي: قيام الشركات المساهمة ذات الاكتتاب العام بتوفير المعلومات والبيانات المتعلقة بنشاطها ووضعها تحت تصرف المساهمين وأصحاب الحصص، وإتاحة الفرصة لمن يريد منهم الاطلاع عليها، وعدم حجب المعلومات.

إذن هي إحدى المصطلحات الحديثة التي استخدمتها الجهات المعنية بمكافحة الفساد في العالم معبرة عن ضرورة اطلاع الجمهور على منهج السياسات العامة وكيفية إدارة الدولة من قبل القائمين عليها من رؤساء دول وحكومات و وزراء وكافة المعنين في مؤسسات الدولة بغية الحد من السياسات الغير معلنة (سياسات ما خلف الكواليس) التي تتسم بالغموض وعدم مشاركة الجمهور فيها بشكل واضح.

الشفافية مبدأ إسلامي رفيع:

لقد جاء الإسلام العظيم بتعاليمه الربانية ومنهاجه الواضح القويم والذي يدعو ويحث على بيان أية معلومات وبكل صدق وأمانة وشفافية في التعامل المالي بين الشركاء ليبتعد الناس عن الاختلاف

والشقاق ، فيحيا الناس في مجتمع متناغم ومنسجم ومتفاهم ، لأن الحاجة إلى الشفافية هي فوق كل شيء- اعتبار شرعي مهم- ويشكل أي نوع من الإخفاء أو الخداع أو محاولة التضليل مخالفة لمبادئ العدالة والإنصاف في الشريعة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:135].

إن الشفافية مبدأ إسلامي رفيع لأنه جزء من العدالة الإسلامية، وقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نماذج من الشفافية في التطبيق على أرض الواقع بكل حسم وحزم فها هو صلى الله عليه وسلم قد أوفد رجلاً لجمع الزكاة، وحين عاد من هذه المهمة التي كلفه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا به يقول- وهو يسلم مجموع الحصيلة التي عاد بها-: إن هذا لكم (يقصد بيت مال المسلمين) وهذا أهدي إلي !.."

وبعد سماع سيد الخلق لهذا الكلام العجيب والغريب أكد رفضه لهذا الأسلوب، وذلك الخروج على القيم الخالدة للدين الحنيف، وأمر بسحب كل ما حصل عليه هذا الرجل وبكل حزم قال صلى الله عليه وسلم: "هلاّ جلستَ في بيت أبيك حتى يُهدَى إليك!"

وهناك نموذج آخر في الشفافية، حين سرق رجل من المسلمين من إحدى قبائل الأنصار من بني أبيرق بن ظفر بن الحارث، وكان اسمه في رواية: «طعمة بن أبيرق»، وفي رواية أخرى: «بشير بن أُبيرق»، وكان هذا الرجل قد سرق درعًا من جارٍ له مسلم يقال له: «قتادة بن النعمان»، وكانت الدرع في جراب [كيس] فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجِراب حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له: «زيد بن السمين»، فالتُمِسَتِ الدرع عند «طعمة» فحلف بالله ما أخذها، فقال أصحاب الدرع: لقد رأينا أثر الدقيق في داخل داره، فلما حلف تركوه.

واتبعوا أثر الدقيق إلى منزل اليهودي، فوجدوا الدرع عنده، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة بن أُبيرق! فجاء بنو ظفر – وهم قوم طعمة- إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسألوه أن يجادل عن صاحبهم، فهَمَّ رسول الله أن يعاقب اليهودي، فأنزل الله هذه الآيات من سورة النساء: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا. وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا. وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء:105-107].

لقد اعتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السارق هو اليهودي لوجود القرائن ضده، ولكن الوحي نزل بخلاف ذلك؛ فلم يكتم صلى الله عليه وسلم شيئًا -وحاشاه- بل قام وأعلن بكل شفافية ووضوح وصراحة أن اليهودي بريء، وأن السارق مسلم!

وليس الأمر هيناً .. لأن التبرئة تأتي في حق يهودي اجتمع قومه من اليهود على تكذيب الإسلام، والكيد له، والطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك، فكل هذه السلبيات والخلفيات لا تبرِّر اتهام يهودي بغير حق.

كما أن هذا الاتهام في حق رجل مسلم من إحدى قبائل الأنصار، وما أدراك من هم الأنصار! هم الذين آووا رسول الله ونصروه، وهم أهل دار الإسلام، وعلى أكتافهم قامت الدولة الإسلامية، ولكن كل هذا ليس مبررًا لتبرئة سارقٍ منهم، ولو كان على حساب يهودي!

إنها الشفافية الإسلامية في أعلى تطبيقاتها، وتظهر الشفافية أيضاً في موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان حين يعين ولاته يحصي أموالهم ويحقق فيها قبل ذهابهم إلى أمكنة ولاياتهم، وكان يشترط عليهم شروطاً بشهود جماعة من الناس، ومن هذه الشروط عدم الاعتداء والظلم على أفراد المجتمع من الناحية الجسدية والمالية وغيرها، وعدم استغلال منصبه لجمع الثروات له ولأقربائه وحاشيته.!

وعلى ضوء هذه السياسة الحكيمة والأمينة فإن عمربن الخطاب إن علم بأن أحداً من المسؤولين خرق العدل، ونكث بالشروط والعهود، واستغل منصبه لمآرب ذاتية فإنه كان لا يساوم قط على العدالة وحقوق الناس، مثال ذلك فإن عمراً صادر أموال واليه على البحرين، حينما علم وتوثق لديه أنه بعد فترة من ولايته على البحرين، قد بلغ حداً كبيراً من الثراء، لذلك استدعاه فقال له: (ألا تعلم أني استعملتك على البحرين وأنت حاف لا نعل في رجليك!) وصادر عمر أمواله وعزله من جميع المسؤوليات!

وكان عمر يحقق مع الولاة ويحاكمهم، ويوجه لكل واحد منهم هذا الخطاب : (من أين لك هذا ؟!) وكيف جمعت كل هذه الأموال والثروات، وأنت قبل المسؤولية لم تكن تملكها ؟

وربما كان الوالي المسؤول يجيب بأنه قد جمعها عن طريق التجارة، لكن عمر كان يرفض هذا التعليل بشدة، ويرد عليه بسرعة (والله ما بعثناك للتجارة !) وبعدها كان يصادر أموالهم.

إن الشفافية مفهوم مرتبط اشد الارتباط بحقوق الانسان الأساسية، و الشفافية هي إحدى أهم الركائز التي تقوم عليها العدالة، وتعزز وتطور مفاهيمها، وتقوي قواعدها ولبناتها، وبغيابها تذهب العدالة أدراج الرياح وتضيع معها حقوق الإنسان وتكرس مفاهيم الفساد والديكتاتورية والعنف بحق الناس.

وأخيراً يمكن القول: بأن أي مشروع كان لا يمكن أن يُكتَب له النجاح ما لم تتوافر فيه الشفافية، لأن العلاقة ما بين الفساد والشفافية هي علاقة عكسية، فكلما زاد الفساد قلَّتْ الشفافية، وكلما زادت معايير الشفافية قلّت نسبة الفساد، نسأل الله تعالى التوفيق والسداد.

سنة التدرج في النهضة والإصلاح

التدرّج سُنّة من سنن الله تعالى، وسنة من سنن الخلق الإلهي للكون والعالم بسماواته وأراضيه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[الأعراف: 54]. فتدرَّج خلقُ الله لها في ستة أيام –من أيامه سبحانه– وهو القادر على أن يقول لها في جزء من اللحظة كن فتكون.

والتدرج سنة من سنن الله في خلقه للإنسان الأول آدم عليه السلام، فبعد المراحل الخمسة (التراب فالماء فالطين فالحمأ المسنون فالصلصال) كانت مرحلة النفخ الإلهي في "مادة" هذا الخلق من "روح الله"، فكان أن استوى هذا المخلوق "إنسانًا"، هو آدم عليه السلام.

ونحن في حاجة شديدة إلى سنة التدرج هذه، لأن النهضة والتغيير في حياة الناس من أصعب الأمور، وقد مكث النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة حتى زحزح العقائد الفاسدة في مكة، ثم كان التشريع الذي استغرق عشر سنوات، فمع تدرج الوحي "المنجّم" واكب التشريع والتطبيق للتشريع تطور التغيير المتدرج للإنسان الذي سيقيم كامل الشريعة، فنظام المواريث طبّق في السنة الثالثة للهجرة، أي بعد ستة عشر عامًا من بدء الوحي.

والنظام الإسلامي للأسرة من الزواج والطلاق والنفقة وسائر أحكامها اكتمل تشريعه وتطبيقه في السنة السابعة للهجرة، أي عبر عشرين عامًا من بدء الوحي.

والقوانين الجنائية تدرج تشريعها وتطبيقها مادة مادة، حتى اكتملت في السنة الثامنة للهجرة، أي عبر واحد وعشرين عامًا من عمر الوحي الخاتم.

وتدرجت أحكام الخمر من الذم لها والتحذير منها إلى التحريم القاطع والنهائي لها في السنة الثامنة للهجرة، أي في العام الواحد والعشرين من بدء الوحي.

وكان تحريم الربا في السنة التاسعة للهجرة، وذلك بعد أن تخلّق في الواقع الإسلامي للمجتمع الجديد والأمة الوليدة اقتصاد إسلامي بديل حلّ محل الاقتصاد الجاهلي القديم.

وعند ذلك أصبح تطبيق الفلسفة الجديدة للنظام اللاربوي ومعاملاته أمرًا ممكنًا[1].

بل إن هذا التدرج قد كان سنة مرعية ومطردة أيضًا في الشعائر والعبادات –بما فيها أركان الإسلام– وليس فقط في أحكام الواقع والمعاملات؛ فالصلاة بصورتها التامة والحالية اكتملت فريضتها ليلة الإسراء والمعراج في السنة الثانية قبل الهجرة، الحادية عشرة من البعثة .

والصوم فرض بالمدينة، وكذلك الزكاة والحج إلى بيت الله الحرام.

ولعل رعاية الإسلام للتَّدَرُّج هي التي جَعَلَتْه يُبقِي على "نظام الرِّقِّ" الذي كان نظامًا سائدًا في العالَم كله عند ظهور الإسلام، وكان إلغاؤه يُؤدِّي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها ما وُجِدَ إلى ذلك سبيل، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حَدٍّ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء للرِّقِّ بطريق التدَرُّج.

وهذه السُّنَّة الإلهية في رعاية التدَرُّج ينبغي أن تُتَّبَع في سياسة الناس كي ينهضوا من جديد، فإذا أردْنا أن نُقيمَ مجتمعًا إسلاميًّا حقيقيًّا علينا أن لا نتوهم أن ذلك يتحقق بجَرَّة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان.

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، أعني بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، وإيجاد البدائل الشرعية للأوضاع المحرَّمة التي قامتْ عليها مؤسسات عِدَّة لأزمنة طويلة، فلا بد من تعيين الهدف، ووضع الخطة، وتحديد المراحل، بوعي وصدق، بحيث تسلم كل مرحلة إلى ما بعدها بالتخطيط والتنظيم والتصميم، حتى تصل المسيرة إلى المرحلة المنشودة والأخيرة.

وسنة التدرج هي المنهاج نفسه الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة إسلامية، وفي الحديث النبوي الشريف الذي جاء نبوءة حاكمة لكل ألوان التغير وعوالمه في الاجتماع الإنساني يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله حتى يولَد في العدل من لا يعرف غيره" [رواه الإمام أحمد].

1– انظر: القانون الإسلامي، لأبي الأعلى المودودي، ترجمة: محمد عاصم الحداد، بيروت، 1975م، ص51، 52.

فدورات العدل والجور وحقب الصلاح والفساد هي السنة التي تحكم سير الاجتماع الإنساني. والتغيير في هذه الدورات محكوم بسنة التدرج، فبقدر الجور والفساد الذي يظهر وينمو يكون قدر العدل والصلاح الذي يتوارى.

ومن المواقف التي لها مَغْزَى ما رواه المؤرخون عن عمر بن عبد العزيز، الذي يَعُدُّه علماء المسلمين "خامس الخلفاء الراشدين" وثاني العمرين؛ لأنه سار على نَهْج جده الفاروق عمر بن الخطاب: أن ابنه عبد الملك – وكان شابًا تَقِيًّا مُتَحْمِسًا – قال له يومًا: يا أبتِ، مالكَ لا تنفذ الأمور؟ فواللهِ ما أُبالِي لو أن القدور غَلَتْ بي وبكَ في الحقِّ!

يريد الشاب التقي الغيور من أبيه – وقد وَلاَّه الله إمارة المؤمنين – أن يقضي على المظالم وآثار الفساد والانحراف دفعة واحدة، دون تريُّث ولا أناة، وليكن بعد ذلك ما يكون!

ولكنَّ الأب الراشد قال لابنه: لا تَعْجَلْ يا بُنَيَّ، فإن الله ذَمَّ الخمر في القرآن مرتين، وحرَّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدعوه جملة، ويكون من ذا فتنة[1]!

يريد الخليفة الراشد أن يُعالِج الأمور بحكمة وتدرُّج، مهتديًا بسُنَّة الله تعالى في تحريم الخمر، فهو يُجَرِّعهم الحق جُرْعةً جرعة، ويَمضي بهم إلى المنهج المنشود خُطوة خطوة، وهذا هو الفقه الصحيح، فقه التدرج بالتغيير جسدتها تجربته العملية التي ما زالت مضيئة في تاريخ الإصلاح الإسلامي، تستحث خُطَا المصلحين على هذا الطريق.

1- انظر الموافقات للشاطبي: 94/2.

علاقة القائد بجنده ... غزوة بدر أنموذجاً
(الجمعة 17 رمضان 2هـ/ 13مارس 624 م)

ستبقى معركة بدر الكبرى مَعلَمًا عريقًا، و دستورًا منيرًا للدعاة والمصلحين والمجاهدين في معاركهم مع الباطل، ستظل الدرس الأكبر في انتصار الفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ..

كما ستظل مرجعًا لتجلية العلاقة بين القائد وجنده، والأمير وجيشه، دروسًا في الجندية والطاعة، والوحدة والتنظيم والجماعة..

والحق أن مسألة " العلاقة بين القائد وجنده " ..تحتاج دومًا للتأصيل والتوضيح، والتبيين والتمثيل، ولن أسرد أحداث معركة أحد فقد أصبحت معلومة بتفاصيلها ولكن سأقف على بعض مشاهد العلاقة بين القائد وجنده من خلال معركة الفرقان، لنرى موضع القائد من جنده وموضع الجند من قائدهم.

1- مشاركة القائد جنوده في الصعاب :

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : فكانت إذا جاءت عقبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قالا : نحن نمشي عنك قال : " ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما"[1].

فالقائد الصالح هو من يشارك جنوده الصعاب، ويحفزهم على القليل والكثير من الصالحات، ليكون قدوة طيبة أخلاقية لجنوده في المنشط والمكره، وليس القائد بالذي يتخلف عن جيشه رهبًا من الموقف أو يتلذذ بصنوف النعيم الدنيوي وجنده يكابدون الحر والقر..!

2- استشارة الجنود:

في وداي ذَفِرَانَ [وهو يبعد عن المدينة المنورة نحو مائة كيلو متر]، وكان في هذا الوادي المجلس الاستشاري الشهير لمعركة بدر- بلغ النبي – صلى الله عليه وسلم- نجاة القافلة، وتأكد من حتمية

1- سيرة ابن هشام 2/ 389.

المواجهة، فإما القتال وإما الفرار.. فاستشار، فجمع الناس ووضعهم أمام الوضع الراهن، وقال لجنوده: "أَشِيرُوا عَلَيّ أَيّهَا النّاسُ! " ورددها مرارًا، وما زال يكررها عليهم، فيقوم الواحد تلو الآخر ويدلو بدلوه، فقام أبو بكر فقال وأحسن. ثم قام عمر فقال وأحسن. ثم قام الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال وأحسن.. حتى قام القيادي الأنصاري البارز سعد بن معاذ، فحسم نتيجة الشورى لصالح الحل العسكري، قائلًا :

"لَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك ، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْت بِهِ هُوَ الْحَقّ ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى ذَلِكَ عُهُودِنَا وَمَوَاثِيقِنَا ، عَلَى السّمْعِ وَالطّاعَةِ .. فَامْضِ يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَا أَرَدْت فَنَحْنُ مَعَك ، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ . لَعَلّ اللّهَ يُرِيك مِنّا مَا تَقُرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ "[1].

فهذا هو المجتمع الإسلامي، الذي يعتبر الشورى ركنًا من أركانه، وأصلاً في بنيانه.

وصدق حافظ إبراهيم – رحمه الله – حين قال:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف و رأي الفرد يشقيها

إن الشورى، من فرائض شرعتنا، ومن مفاخر دعوتنا، ومن معالم حضارتنا، ومن يعمل على تنحيتها، وهدمها وعزلها، أو الالتفاف حولها، فإنما يهدم الفرض، ويفسد في الأرض.

3- الثقة في القيادة.. (امض لما أمرك الله)!

وتأمل القولة التاريخية لسعد بن معاذ ، والتي قال فيها :

"فَامْضِ يَا رَسُولَ اللّهِ لِمَا أَرَدْت فَنَحْنُ مَعَك، فَوَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَوْ اسْتَعْرَضْت بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك ، مَا تَخَلّفَ مِنّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوّنَا غَدًا ، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللّقَاءِ . لَعَلّ اللّهَ يُرِيك مِنّا مَا تَقُرّ بِهِ عَيْنُك ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللّهِ"[2].

فامض يا رسول الله لما أردتَ، فنحن معك ..فسر بنا على بركة الله ..

1- الروض الأنف، السهيلي 3 / 57.

2- المصدر السابق.

إنها ثقة الجندي في قائده، والثقة الحقة هي اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصه .. اطمئنانًا عميقًا؛ يُنتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة، قال الله تعالى في شأن الشاكين في كفاءة القيادة الإسلامية وإخلاصها :

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور:50] فإذا انتشر الشك في صفوف الجماعة؛ انتشر على إثر ذلك الخوار والتصدع في بنيان الدعوة.

4- تبشير الجنود وبث الثقة فيهم:

سُرّ رَسُولُ اللّهِ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشّطَهُ ذَلِكَ ثُمّ قَالَ : "سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ، فَإِنّ اللّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إحْدَى الطّائِفَتَيْنِ ! وَاَللّهِ لَكَأَنّي الآن أَنْظُرُ إلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ!"[1].

وفي اليوم السابق ليوم بدر مشى – صلى الله عليه و سلم – في أرض المعركة وجعل يُري جنوده مصارع رؤوس المشركين واحدًا واحدًا، وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ: هَذَا مَصْرَعُ فلان– ووضع يده بالأرض – ، وَهَذَا مَصْرَعُ فلان، وَهَذَا مَصْرَعُ فلان – إنْ شَاءَ اللّهُ –، فَمَا تَعَدّى أَحَد مِنْهُمْ مَوْضِعَ إشَارَتِهِ، فَعَلِمَ الْقَوْمُ أَنّهُمْ يلاقُونَ الْقِتَالَ، وَأَنّ الْعِيرَ تُفْلِتُ وَرَجَوْا النّصْرَ لِقَوْلِ النّبِيّ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ"[2].

وأخبر بقتل المسلمين لأمية بن خلف، ولذلك قال سعد بن معاذ لأمية عندما ذهب إلى مكة قبيل بدر: يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله يقول: "إنهم قاتلوك" ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً"[3].

5- احترام آراء الخبراء والجنود :

فقد قال عبد الله بن رواحة – في موقف من مواقف بدر – : "يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك"[4]. فأنصت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقول ابن رواحة وقال له قولاً حسنًا..

1- الروض الأنف، السهيلي 3 / 57.

2- مغازي الواقدي 49.

3- البيهقي : دلائل النبوة : 21.

4- الطبراني في الكبير 4 / 210.

ولما تحرك رسول الله إلى موقع ماء بدر، في موقع المعركة، نزل بالجيش عند أدنى بئر من آبار بدر من الجيش الإسلامي، وهنا قام الْحُبَاب بْنَ الْمُنْذِرِ وأشار على النبي بموقع آخر أفضل من هذا الموقع قائلًا :

(يَا رَسُولَ اللّهِ ! أَرَأَيْت هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ اللّهُ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ ولا نَتَأَخّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: " بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ".. فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللّهِ فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرَ [أي ندفن] مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ، ثُمّ نَبْنِيَ عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً، ثُمّ نُقَاتِلَ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبَ وَلَا يَشْرَبُونَ..

فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – مشجعًا – :" لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ").

وبادر النبي – صلى الله عليه وسلم – بتنفيذ ما أشار به الحباب، ولم يستبد برأيه برغم أنه القائد الأعلى، وعليه ينزل الوحي من السماء، فَنَهَضَ رَسُولُ اللّهِ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النّاسِ فَسَارَ حَتّى إذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمّ أَمَرَ بالآبار فخُربت، وَبَنَى حَوْضًا عَلَى الْبئر الّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ[1].

إن هذه المواقف لتبين كيف تكون العلاقة بين القائد وجنوده، إنها علاقة تحترم الآراء الناضجة وتشجع الأفكار الصاعدة، وتتبنى الابتكارات، وتحفز الاختراعات.

6- عدل وتنظيم وطاعة:

قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بيت القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود.. أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده لَيَقتص الجندي منه.. أما الجندي فهو سَوَادِ بْنِ غَزِيّةَ، لما اسْتَنْتِل من الصف، غمزه النبي – صلى الله عليه وسلم – غمزة خفيفة في بَطْنِهِ – بالسهم الذي لا نصل له – وقال: "اسْتَوِ يَا سَوّادُ!".. قال: يا رسول الله! أوجعتني! وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فَأَقِدْنِي! فكشف رسول اللّهِ – صلى الله عليه وسلم– عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: "اسْتَقِدْ".. فَاعْتَنَقَهُ فَقَبّلَ بَطْنَهُ! فَقَالَ النبي–

1- سيرة ابن هشام – 1 / 620.

صلى الله عليه وسلم-: "مَا حَمَلَك عَلَى هَذَا يَا سَوّادُ؟"، قال: حضر ما ترى، فَأَرَدْتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! فدعا له رسول الله بخير"[1].

وفي هذا الموقف؛ نرى – أيضًا – عظَمَ أهمية التنظيم، وتنسيق الصفوف، وتقسيم الكتائب، وتأمير الأمراء، فلا نجاح لتنظيم دون تنظيم، ولا فلاح لجماعة فوضوية!

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف :4].

7- دعاء القائد لجنده :

لما عَدّلَ رَسُولُ اللّهِ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – الصّفُوفَ وَرَجَعَ إلَى مقر القيادة، فَدَخَلَهُ وَمَعَهُ فِيهِ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ، إذا بَرَسُولُ اللّهِ – صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ – يُنَاشِدُ رَبّهُ مَا وَعَدَهُ مِنْ النّصْرِ وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ : " اللّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي .. اللّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي.. اللّهُمَّ إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإسلام لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ!!"[مسلم (3309].

وبالغ في الابتهال، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ : "يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ" ... ثُمّ انْتَبَهَ فَقَالَ " أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ ! أَتَاك نَصْرُ اللّهِ ! هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، عَلَى ثَنَايَاهُ النّقْعُ"[2].

وأخيرًا .. العلاقة بين القائد وجنده، علاقةُ أساسها الإيمان، وعمادها الأخوة، وأركانها الشورى والطاعة والمشاركة والثقة.

1- سيرة ابن هشام - 1 / 620.

2- السهيلي 3 / 68.

معايير السفير في السياسة الإسلامية

أول من استعان بالدبلوماسية في الإسلام وأرسل السفراء إلى الدول والحكومات هو نبينا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم إذ بعث بالسفراء إلى الشام والروم وفارس والبحرين ومصر والحبشة واليمن، وزوَّدهم بكتب هي وثائقُ تؤيِّد صحة انتدابِهم كما توضِّح الغرض منه.

وعرَف الإسلام في عهد النبي الكريم نظامَ استقبال السُّفراء والرسل، فقد جاء في سيرة ابن هشام: أنَّ الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – والصَّحابة – رضوان الله عليهم – كانوا يلبَسون أحسن الثِّياب عند استقبالهم الوفود والرسل".

كما كان اختيار رسول الله محمدٍ صلى الله عليه وسلم لسفرائه في غاية العناية ووَفق معايير دقيقة، وهي القاسم المشترك للمواصفات الخاصة بهؤلاء السُّفراء، والسفراء الذين اختارهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هم:

1- دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه إلى قيصرَ ملكِ الروم، واسمه هِرَقْل.
2- عبدالله بن حذافة السهمي رضي الله عنه إلى كسرى أبرَويز بن هرمز، ملك الفرس.
3- عمرو بن أمية الضَّمري رضي الله عنه إلى النجاشي ملك الحبشة.
4- حاطب بن أبي بَلتعة رضي الله عنه إلى المقوقس عظيم القبط.
5- عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى جَيْفَرٍ وعَبْد ابنَي الجُلَنْدَي الأَزْديَّيْنِ، ملِكَي عمان.
6- جَرير بن عبدالله الْبَجَلي رضي الله عنه، إلى ذي الكَلاعِ الحِمْيَري وذي عمرٍو.
7- العَلَاء بن الحَضْرَميِّ رضي الله عنه إلى الْمُنذِرِ بنِ سَاوَى العَبْدِي مَلِكِ البَحْرَين.
8- سليط بن عمرو رضي الله عنه إلى هوذة بن علي ملك اليمامة، وإلى ثُمامة بن أُثال، الحنفيين.
9- الحارث بن عمير الأزدي رضي الله عنه إلى عظيم بُصْرَى، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر.

ومن خلال دراسة سِيَر هؤلاء السفراء نجد أنهم يشتركون في مجموعة من المواصفات يمكن أن تكون معيارًا ثابتًا لسفراء الدول:

أولاً: الإيمان المطلَق بالقضية؛ وقد كان مَنْ اختِيرَ من السفراء من أصحاب السبق في الإسلام، وممن لهم مواقفُ متميزة، ومَشاهدُ لنصرة دولة الإسلام، فعلى سبيل المثال فإن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه كان ممن شهد بدرًا، وعبدالله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ممن هاجر إلى الحبشة وقد شهد غزوة أحُد.

وكان هؤلاء السفراء يعلمون يقيناً أن مهمتهم صعبة وقد تكون نهايتها الموت، ولكنهم كانوا على استعداد تام للتضحية بحياتهم من أجل قضيتهم، وبالفعل فقد قدم السفير الحارث بن عمير الأزديُّ رضي الله عنه حياته من أجل هذه المهمة؛ حيث عَرَضَ له شُرَحْبِيل بن عمرو الغسَّاني فأوثقه رباطًا، فضرب عنقه.

ثانياً: العلم والحكمة؛ فالسفير الجاهل فسيكون مِعول هدمٍ لقضيته من حيثُ لا يشعر، ولقد كان السفراء المسلمون أصحابَ علم ودينٍ وحكمة، ونضرب هنا مَثلاً بالعَلاء بن الحضرمي رضي الله عنه؛ "قَدِم على المنذر بن ساوى، فقال له: يا منذرُ، إنك عظيمُ العقل في الدنيا، فلا تَصغُرَنَّ عن الآخرة، إنَّ هذه المجوسية شرُّ دين ليس فيها تكرم العرب، ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يُستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكرَّم على أكله، ويعبدون في الدنيا نارًا تأكلهم يوم القيامة، ولستَ بعديم عقلٍ ولا رأي، فانظر هل يَنبغي لمن لا يكذب أن لا تُصدقه، ولمن لا يخون أن لا تأمنه، ولمن لا يخلف أن لا تثق به؛ فإن كان هذا هكذا، فهو هذا النبي الأمي الذي والله لا يَستطيع ذو عقل أن يقول: ليتَ ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليت زاد في عفوِه أو نقَص من عقابه! إن كان ذلك منه على أمنية أهل العقل وفِكر أهل البصر.

فقال المنذر: قد نظرت في هذا الأمر الذي في يدي، فوجدتُه للدنيا دون الآخرة، ونظرتُ في دينكم فوجدتُه للآخرة والدنيا، فما يَمنعني من قَبول دينٍ فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبتُ أمسِ ممن يَقبله وعجبتُ اليوم ممن يردُّه، وإن من إعظام مَن جاء به أن يعظم رسوله وسأنظر"[1].

1- انظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم السهيلي:515/7.

ثم أسلم المنذرُ على إثر ذلك وحَسُن إسلامه.

يقول محمود شيت خطاب رحمه الله تعالى: "وقد تميز سفراء النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة، فلا بد أن يكون السفير مقنعًا، حسَن التصرف، متَّزنًا غير متهور، عاقلاً ذكيًّا، حاضرَ البديهة قويَّ الحجة، سليم المنطق هادئ الطبع مجرِّبًا، إلى غير تلك المزايا التي تجعل السفير حكيمًا في تصرفه، ينطق بالحكمة ويدعو إلى الحكمة"[1].

ثالثاً: الشجاعة والصبر؛ فالمكلف بمثل هذا لا بد أن يتمتع بشجاعة فائقة، وصبرٍ عظيم، وعزمٍ لا يَلين؛ لأنه سيَسير آلاف الكيلومترات ذهابًا وإيابًا، وسيَلتقي بالأعداء والغادرين، وسيمر عليه الليل الطويل والنهار الشاقُّ في الغربة، وسيَلتقي بالملوك والرؤساء ذَوي القوة والبأس والبطش، ممن يَحتاج في لقائهم إلى رباطة الجأش، فربما عُذِّب وربما سُجن؛ لذلك فمن لم يكن شجاعًا وصَبورًا فلا يمكن أن يُباشر هذه المهمة، ولقد كان جميع سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم يَمتلكون هذه الصفات؛ لأنهم مجرِّبون، فقد خاضوا معاركَ شرسة كثيرة، ومَرُّوا بمواقفَ أثبتوا شجاعتهم وثباتهم.

رابعاً: الذكاء والدهاء واللباقة وحضور البديهة، فقد عُرف عن عمرو بن العاص رضي الله عنه بأنه من دهاة العرب، إن لم يكن داهية العرب الأول، وكان عمرُو بن أمية الضَّمري رضي الله عنه لبقًا ذكيًّا، وكذا باقي سفراء الرسول؛ لأن المهمة الموكلة إليهم تحتاج إلى ذلك.

ولقد تعرَّض حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى مثل هذا الموقف؛ فقد سأله المقوقس عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيحدِّث حاطبٌ رضي الله عنه فيقول: "بعثَني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك الإسكندرية، قال: فحيَّيتُه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزلني في منزله وأقمتُ عنده، ثم بعث إليَّ وقد جمع بَطارقته، فقال: إني سأكلِّمك بكلام، وأحبُّ أن تفهمه مني، قال: قلت: هلم، قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيًّا؟ قلت: بلى، هو رسول الله، قال: فما له حيث كان هكذا لم يَدعُ على قومه حيث أخرَجوه من بلده إلى غيرها؟ قال: فقلتُ: عيسى ابن مريم أليس

1- انظر: سفراء الرسول، محمود شيت خطاب:302/2.

تَشهد أنه رسول الله؟ فما له حيث أخَذه قومه فأرادوا أن يَغلبوه ألاَّ يكون دَعا عليهم بأن يُهلكهم الله عز وجل، حتى رفعه الله إليه في السماء الدنيا؟! قال: أنت حكيمٌ جاء مِن عند حكيم"[1].

خامساً: الجمال والأناقة والسمت الحسن والمظهر اللائق؛ وهذا لمتطلَّبات هذه المهمة حصرًا؛ لأن الإسلام في الأصل لا ينظر إلى شكل الإنسان، ولكن ينظر إلى قلبه وعمله وجوهره، ولكن في بعض المهمات يحتاج الأمر إلى ذلك من باب: (حدِّثوا الناس بما يعرفون)، وهي قاعدة بليغة في السياسات الخارجية.

لقد كان كثير من سفراء الرسول على درجة من الجمال والأناقة والوسامة، ومنهم دحية الكلبي رضي الله عنه المشهور بالجمال، حتى فقد كان جبريل عليه السلام يأتي النبيَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم بصورته من جماله؛ فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "رأيت رجلاً يوم الخندق على صورة دحيةَ بنِ خليفة الكلبي رضي الله عنه على دابة يُناجي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه عمامة قد أسدَلها عليه، فسألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (فإن ذلك جبريل عليه الصلاة والسلام أمرني أن أخرج إلى بني قريظة) [المستدرك على الصحيحين للحاكم، في كتاب اللباس].

وأما جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه فلم يكن أقلَّ جمالاً؛ فعن "جرير بن عبدالله قال: لما قدمتُ المدينة والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب، فقال: (يَدخل عليكم من هذا الباب أو من هذا الفجِّ مِن خير ذي يمَن، ألا وإنَّ على وجهه مِسحةَ مَلَك(، قال: فحمدتُ الله على ما أبلاني". [انظر: صحيح ابن خزيمة، في كتاب الجمعة، باب جماع أبواب الأذان والخطبة في الجمعة].

وكان المسلمون يقارنون بين جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه وبين دحية الكلبي رضي الله عنه في الجمال؛ فهذا عوانة بن الحكم سأله رجلٌ: "أجمل الناس جرير بن عبدالله؟ فقال: بل أجمل الناس مَن ينزل جبريلُ على صورته؛ يعني: دحية الكلبي رضي الله عنه"[2].

سادساً: معرفة اللغات وخاصة لغة من بعث إليهم، فقد جاء في كتاب (أخلاق الملوك) للجاحظ تحت عنوان "آداب السَّفير" ما نصه: "ومن الحقِّ على الملك أن يكون رسولُه صحيح الفِطرة والمزاج، ذا بيانٍ

1- انظر: دلائل النبوة للبيهقي – باب ما جاء في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم.

2- سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة: 555/2.

وعبارة، بصيرًا بمخارج الكلام وأجوبتِه، مؤدِّيًا لألفاظ المِلك ومعانيها، صادق اللَّهجة، لا يميل إلى طمَعٍ أو طبْع، حافظًا لِما حمِّل، وعلى الملك أن يمتحنَ رسولَه محنةً طويلة قبل أن يجعلَه رسولاً".

وأورد أبو عليٍّ الحسين بن محمد المعروفُ بابن الفرَّاء الحكمة التي تقول: (إنَّ الكتاب يدٌ، والرسول لسان)، كما استشهد بقول عبدالله بن جعفر بن أبي طالب:

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلاً فَأَرْسِلْ حَكِيمًا وَلاَ تُوصِهِ

وقال أيضاً في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: 4]، ويعلِّق ابن الفرَّاء على هذه الآية الكريمة مستنتجًا أن يكون السَّفير قادرًا على تفهُّم لغة مَنْ يرسل إليهم.

فكتاب ابن الفراء من أهم المصادر عن السفراء في الإسلام واسمه: "رسُلُ الملوك ومن يصلح للرسالة والسِّفارة"، وهو يتناول بالتَّفصيل كيف رفع فقهاءُ المسلمين منزلةَ الرسول والسفير، واعتبروا أنها تستمدُّ حرمتها من مكانةِ الرُّسل الذين يبعث بهم الله – عز وجل – إلى عباده ليبلغوا رسالته.

سابعاً: المهارة والكفاءة بعيداً عن القبلية والمحسوبيات، فلم يحدد رسول الله صلى الله عليه وسلم سفراءه من قبيلة واحدة أو بيتٍ واحد، بل نوَّع بينهم، وكأنه اختار من كل بطن أو من كل قبيلة واحدًا، والمثير أنه لم يكن من بين هؤلاء السفراء أحدٌ من أقربائه من بني هاشم، وفي ذلك دلالات سياسية جميلة بأن رئيس الدولة يُعيِّن سفراءه على أساس الكفاءة والنوعية وملائمة المهارات، وليس على أساس القَرابة والنسب.

وكان من مهمة السفراء المهرة أن يعلَموا حالة الطرُق والأمكنة التي توجد فيها المروج والأعشاب والحشائش للعلف، وكذلك قوَّة الجيش ومَؤونته في العَدَد والعتاد وفي الدِّفاع والهجوم، وأن يعرفوا كلَّ ما يتعلَّق بأمور البلاد الأجنبية من النواحي الشخصية والعامة، ليفيدوا بهذه المعلومات بلدهم ويطوروها، كما أنَّ السفراء في العهد العباسي كانوا يتوخَّون في السفارات أغراضًا علميَّة وبحثية.

ثامناً: الحصانة والتسامح واحترام العادات والتقاليد التي لا تعارض الدين، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل الوفود باحتفالٍ وَفْق المراسيم والعادات، وسفراؤه يحترمون تقاليدَ الدول التي يُوفدون إليها ولا يخرجون عنها، إلا إذا تعارضت مع أحكام الدين، كعادة السُّجود للملوك التي كانت شائعةً آنذاك.

وكانوا يعترفون للمبعوثِ الأجنبي بالحصانة دون حصولِه على وثيقة أمان، فقد روى أبو رافع فقال: بعثتني قريش إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فلمَّا رأيتُه وقع في قلبي الإسلام، فقلتُ: يا رسول الله، والله لا أرجع إليهم أبدًا. فقال صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلاَ أَحْبِسُ الْبُرُدَ، وَارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَإِنْ كَانَ فِي قَلْبِكَ الَّذِي فِيهِ الآنَ فَارْجِعْ"، [رواه أبو داود، في كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود، برقم (2758)، وأحمد (23908) وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح].

ومعنى أخيس أي: لا أنقض العهد ولا أفسده، من قولهم: خاس الشيء إذا فسد. البرد: جمع بريد وهو الرسول، وهذا يدلُّ على مدى تقدير الرَّسول للأمانة التي يجبُ أن يتخلَّق بها السفير، وإلزامه بتأديتِها بإخلاص.

بل كان التسامح الإسلامي يتَّسع إلى حد إضفاء صفةِ المفاوض على كلِّ من يجادل في موضوعٍ يخصُّ الدعوة الإسلامية حتى إنَّ هذا التسامح شمل بأمرٍ من النبيِّ – صلَّى الله عليه وسلَّم – مبعوثيْ مسيلمةَ الكذَّابِ مع أنهما أساءا القول.

فقد أورد ابن حجر الهيثمي في كتابه (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) مجموعة من الأحاديث تحت باب سمَّاه: (باب النهي عن قتل الرسل)، منها: ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حين قتل ابن النواحة: إن هذا وابن أثال كانا أَتَيَا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم رسوليْن لمسيلمة الكذاب فقال لهما رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: "أَتَشْهَدَانِ أَنِّي رَسُولُ اللهِ؟". فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. قال: "لَوْ كُنْتُ قَاتِلاً رَسُولاً لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا"[رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الرسل، برقم (2761)، وأحمد (3708) واللفظ له، وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح. والدارمي (2503)].

قال الهيثمي: "فَجَرَتِ السُنَّة أن الرسل لا تُقْتَلُ". [انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد 378/5].

وبذلك تكون الحضارة الإسلامية قد سبقت الحضارة الغربية بأكثر من 1400 سنة في وضع القواعد الإنسانية الحضارية للرُّسُلِ والسفراء، تلك المجتمعات التي لم تعترف بهذه القاعدة حتى وقت قريب.

وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا

ورد في القرآن الكريم لفظ السلْم (بتسكين اللام) ثلاث مرات، والسلَم (بفتح اللام) خمس مرات، والسلام اثنين وأربعين مرة، كما وردت ألفاظ كثيرة أخرى مشتقة من هذه المادة، ومنها الإسلام الذي يعني الاستسلام لأمر الله والإخلاص لعبادته، ويطلق عليه السلْم كذلك (بفتح السين وكسرها وتسكين اللام)، على حَدِّ قول امْرِئِ القَيْسِ بْنِ عابِسٍ:

فَلَسْتُ مُبَدِّلًا باللَّه رَبّاً وَلَا مُسْتَبْدِلًا بالسِّلْم دِينَا

السلم والسلام والإسلام مصطلحات مركزية في القرآن الكريم، دعا إليها، ورفع من شأنها، ووجه الأنظار إليها؛ فنحن نقرأ بخصوص دعوة المؤمنين إلى الالتزام بأحكام الإسلام جميعها، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:208]؛ ونقرأ في صفة القرآن الكريم بأنه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة:16]، ونقرأ أيضاً دعوته سبحانه لعباده المؤمنين، أن يجدُّوا في العمل، ويكدُّوا في السعي من أجل دار باقية، لا من أجل دار فانية، ويقول في وصف تلك الدار: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:25]، علاوة على أن (السلام) اسم من أسماء الله تعالى الحسنى.

وإذا وجهنا أنظارنا تلقاء ساحات القتال، ومواطن النزال، ومخابر الرجال، وجدنا خطاب القرآن يقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:61] فالآية خطاب عام بالدعوة إلى الاستجابة للسلم، إذا ما طلبُه الخصم.

ثم إننا نقرأ خطاباً من نوع آخر في القرآن، يقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:35]، وهذا الخطاب ينهى المؤمنين عن الاستكانة للعدو، ومسالمته، ويخبر أن النصر مع المؤمنين إن صدقوا الله في جهادهم لأعدائهم.

إذن، نحن أمام خطابيْن قرآنييْن، وإن شئتَ قل: أمام نصيْن قرآنييْن؛ أحدهما: يدعو المؤمنين إلى الاستجابة إلى نداء السلْم، والدخول في المسالمة، وقبول الصلح؛ وثانيهما: ينهي المؤمنين عن الضعف الاستكانة والمسالمة، ولا يخفاك ما يبدو من تعارض بين الآيتين.

وقد توقف المفسرون عند الآيتيْن الكريمتيْن، وذكروا أن الآيتيْن من حيث الظاهر متعارضتان؛ وكان لهم مسلكان في دفع هذا التعارض:

المسلك الأول: يرى أصحاب هذا المسلك أن قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، منسوخ بالآيات الآمرة بجهاد الكفار وقتالهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:36]، ونحو ذلك من الآيات الداعية إلى قتال أهل الكفر والعناد. ومن القائلين بالنسخ: قتادة وعكرمة والحسن البصري وبعض التابعين.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يشدُّ من أزر هذا القول، وذلك فيما أخرجه أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، قال: نسختها هذه الآية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:29].

المسلك الثاني: يرى أن الآيتيْن محكمتان، ولا نسخ بينهما، بل كل آية منهما تتحدث عن حالة غير الحالة التي تتحدث عنها الآية الأخرى، وبالتالي يكون لكل حالة حكم مغاير عن حكم الحالة الأخرى، وإن كان المفسرون يختلفون وراء ذلك في توجيه الآيات، وبيان الحالات؛ فمنهم من قال: إن قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، يتحدث عن حالة يكون فيها المسلمون في موقع قوة، وسيطرة على مجريات الأمور، فإذا طلب الأعداء – والحالة كذلك – السلم من المسلمين، فإن على المسلمين أن يستجيبوا لهم، ويعطوهم ما طلبوا من سلم ومسالمة.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، فيتحدث عن حالة يطلب المسلمون فيه السلْم من الأعداء ابتداءً، فهذا الذي نهت عنه الآية، وطلبت من المؤمنين ألا يدعوا المشركين إليه، بل عليهم أن يُعدُّوا العُدة، ويتأهبوا لملاقاة الأعداء، ويطلبوا العون من الله، فإنه ناصرهم لا محال.

إذن، لما كان مورد الآيتين مختلفاً، فقد استدعى ذلك اختلافاً في الحكم، دون أن يعني ذلك تعارضاً بين الآيتين؛ لاختلاف الحالتين، واختلاف الموردين اللذَيْن تتحدث عنهما كل آية.

وللعلم، فإن دعوة المسلمين الكفار إلى الصلح ابتداء -كما يذكر الطبري- لم يرد لها ذكر في القرآن، وإنما الذي ورد أن يجنحوا للسلم، إن طلب منهم الكفار ذلك.

هذا، وقد ردَّ الطبري قول القائلين بالنسخ فقال ما حاصله: "ومن قال بأن هذه الآية منسوخة، فقول لا دلالة عليه من كتاب، ولا سُنَّة، ولا فطرة عقل".

ومع أن الطبري نفى أن يكون ثمة نسخ بين الآيتيْن، إلا أنه يذهب إلى أن قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ نص خاص عنى به بني قريظة، وكانوا يهوداً من أهل الكتاب، وقد أذن الله سبحانه للمؤمنين بصلح أهل الكتاب، ومتاركتهم الحرب على أخذ الجزية منهم، وروى عن مجاهد: {وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ}، قال: قريظة.

ومنهم من نفى أن يكون بين الآيتيْن نسخ أو تخصيص، وإنما كل آية يُعمل بها في موضعها؛ ومحصل هذا التوجه كما يفيده كلام ابن كثير: أن الأصل قتال أهل الشرك، إذا أمكن ذلك، والعمل بهذا يكون على وفاق قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾؛ أما إن كان المسلمون في حالة ضعف، بحيث لا يمكنهم قتال المشركين، فإنه - والحالة كذلك - يجوز مهادنتهم، ولو لم يطلب المشركون الصلح. وعلى هذا - بحسب ابن كثير - لا منافاة، ولا نسخ، ولا تخصيص بين الآيتيْن؛ فإحداهما: تقرِّر ما هو الأصل، وهو القوة؛ والأخرى: تقرِّر ما هو الاستثناء، وهو حال الضعف.

وقريب مما ذهب إليه ابن كثير، ما ذهب إليه الشوكاني، مع شيء من الاختلاف في التوجيه، حيث قرر الشوكاني أنه "لا مقتضى للقول بالنسخ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى

السلْم ابتداءً، ولم ينْهَ عن قبول السلْم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص".

ومن الملاحظ أن أصحاب المسلك الثاني، قد اتفقوا على أن الآيتيْن محكمتان، وألا نسخ بينهما مطلقاً؛ غير أنهم افترقوا بعض الشيء في توجيه الآيتيْن؛ فالطبري ذهب إلى أن آية الأنفال خاصة، وابن كثير لم يرَ التخصيص، ووجَّه الآيتيْن على أساس حالة المسلمين من القوة والضعف؛ والشوكاني وجَّه الآيتين على أساس الابتداء في طلب السلم وعدمه.

فتحصَّل مما تقرَّر في هذا المسلك، أن الدعاء إلى السلم المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾، إنما هو طلب السلْم والمسالمة من العدو في حال قدرة المسلمين، وخوف العدوّ منهم، فالنهي عن السلْم هنا مقيَّد بكون المسلمين داعين له، وبكونهم في حالة قوة ومَنَعة، بحيث يدعون إلى السلم رغبة في الدعة؛ أما السلْم الوارد في قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾، فإنه سِلْمٌ طلبَه العدوُّ، فليست هذه الآية ناسخة لتلك ولا العكس، ولكلٍّ حالة خاصة.

بقي أن ننبِّه إلى أمريْن اثنين:

الأول: العدو الذي احتل أرض غيره كإسرائيل، ثم دعا إلى سلام ومسالمة، فلا ينطبق عليه حكم الآية المشار إليها، ولا يصحُّ عليه معنى الجنوح إلى السلْم، إلا إذا صحَّت مصالحة المسروق للص السارق!

الثاني: أفاد العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى أن الله سبحانه قال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾، ولم يقل: (وإن طلبوا السلْم) فأجبهم إليها، للتنبيه على أن الأعداء لا يجابون إلى السلْم، إلا إذا عُلم من حالهم الرغبة فيه؛ لأنهم قد يُظهرون الميل إلى السلْم كيداً أو خدعة، وعندئذ فلا ينبغي أن يجابوا إليه، وهذا مستفاد من دلالة الفعل (جَنَحُوا).

السياسة الناعمة

تعتبر السياسة النَّاعِمة من العلوم الجديدة في العصْر الحديث، وهي البَديل القادِم عن السياسة الصلبة أو الخشنة التي تَعتمد فقط على استِخدام القوَّة.

ولزيادة شرْح هذا المفهوم الجديد بما يسمَّى السياسة الناعمة: هي أن يكون للدَّولة قوة روحيَّة ومعنويَّة من خلال ما تجسِّده من أفكار ومبادئ وأخلاقٍ من خلال الدَّعم في مجالات حقوق الإنسان والبِنية التحتيَّة والثقافة والفنِّ؛ ممَّا يؤدِّي بالآخرين إلى احترام هذا الأسلوب والإعجابِ به، ثمَّ اتِّباع مصادره.

ومن أوائل مَن كَتَب في هذا العلم القوَّة الناعمة (Soft power) في العصر الحديث (جوزيف ناي) من جامِعة هارفارد، الذي كان مساعدًا لوزير الدِّفاع في حكومة (بيل كلينتون)، يتحدَّث عن مفهومها أنَّها: القدرة على الجذْب والضم، دون الإكراه أو استخدام القوَّة كوسيلة للإقناع، وهي وسيلة النجاح في السياسة الدولية العالمية.

وترتكز السياسة الناعمة على ثلاثة موارد:

1- الثقافة: فتكون ثقافة الدولة جذابة للآخرين في أماكن وجودها، حينما تكون القيم عالمية، يشاركها الآخرون في هذه القيم والمصالح، فالقيم الضيقة والمحدودة تقل احتمال انتاجها للسياسة الناعمة، لذلك يقول جوزيف ناي: قوة أمريكا الناعمة أعظم من أصولها وموجوداتها الاقتصادية والعسكرية.

ولقد اعتمدت أمريكا على القوة الخشنة ردحاً من الزمان لكنها تحولت إلى القوة السياسية الناعمة لأن الرأي العام العالمي قد نضج وأصبح ينفر من القوة الخشنة والبدائية، علاوة على أن القوة الخشنة باهظة التكاليف في الأنفس والأموال.

والعلم والمعرفة ركيزة كبرى في السياسة الناعمة، فاليابان مثلاً لما جُرِّدت من القوة الخشنة أصبحت بالعلم والمعرفة قوة ناعمة على مستوى العالم، لأن التقدم العلمي قرب المسافات الشاسعة بين الأمم وهو نوع من القوة السياسية الدافئة، فالتباعد والعزلة سبب في تباين الأفكار وإضعاف العلاقة بين الناس، والسلام من صميم السياسة الناعمة.

أليس المسلمون لديهم السياسة الناعمة؟ بلى فمنبع قيمهم الإسلام، وهو يشتمل على جميع القيم العالمية، كقيمة الإيمان بالله وبالرسل والكتب، وقيمة وحدة الجنس البشري في الأصل والمنشأ، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:6]، وهذه الوحدة إطار عام للتعددية واالتنوع في الألوان واللغات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِين﴾ [الروم:22].

وقيمة تكثير الصداقات وتقليل العداوات، قال الله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:34].

وهذه قاعدة سياسية مكينة وجذابة، وقد قيل قديماً: (اجعلوا الرماح مناجل) أي حولوا الرماح التي تقتل الإنسان إلى مناجل تستخدمونها في حصاد الزروع والبساتين، فهل نريد أن نجعل الحياة كذلك؟! يا ليت.. وكلنا أمل أن تتحقق هذه الأمنيات.

ولكن السياسة الناعمة ينبغي أن لا تجعلنا نذهل عن السياسة الخشنة عند الضرورة؛ لأنها تحمي السياسة الناعمة، وتدفع شر الأشرار وعدوان المعتدين، فهناك فرق بين السياسة الناعمة كأصل في العلاقات الدولية، وبين والسياسة الخشنة التي هي بمثابة القوة الحارسة والدافعة للظلم.

2- القيم السياسية: يكون تطبيقها بإخلاص في الداخل والخارج، كالعدل فهو أساس الحكم، ولذلك وبدون قيم قتل (ستالين) خمسين مليون إنسان لا بشرع ولا قانون، وهكذا كل الظلمة والطواغيت عبر التاريخ وإلى اليوم يقتلون البشر دون رادع من دين أو خلق، فالسياسة الناعمة تستلزم أن يكون القانون فوق الجميع، وهذه القيم والفضائل من صميم الإسلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وَايْمُ اللَّهِ: لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) [متفق عليه].

3- السياسة الخارجية: حينما يراها الآخرون مشروعة وذات سلطة معنوية وأخلاقية، فتكون السياسة ناعمة وناجحة، بالمحافظة على القيم البيئية كالنظافة وحماية البيئة والزراعة بشكل عام حيث جميعها قيم مشروعة وذات سلطة معنوية قوية، وكذلك القيم الاقتصادية كإتقان

العمل والكسب المشروع واحترام الوقت، كل ذلك من السياسة المشروعة الجامعة لكلمة الأمم والشعوب، لأنها قوة أخلاقية وقيم مؤدية إلى احترام الآخرين، وهذه القيم مجتمعة منبعها الإسلام الحنيف.

ولو رجعنا قليلًا القهقرى في تاريخنا الإسلامي، لوجَدنا أنَّ هذه الطريقة كانت متَّبَعة، فنشْر ثقافة الإسلام الرَّاقية على أيدي المسلمين الأوائل من إندونيسيا شرقًا إلى الأندلس غربًا – كانت كفيلةً لتبنِّي هذه الشُّعوب مبادئَ الإسلام الخالِدة، وكونَت تحالفات يَصعب التغلُّب عليها، وكان من نتائجها أنَّ المسلمين حكَموا الكرةَ الأرضيَّة لقرون من الزَّمن، وما زالَت آثارُهم الثقافيَّة والعلمية والحضارية تَستفيد منها الأجيالُ من الأمم إلى وقتنا الحاضر.

لذلك على المسلمين أن يعودوا إلى جذورهم الصحيحة، ويهتموا بالسياسة الناعمة التي تساعد على انتشار الإسلام ولا يقفون حجر عثرة أمام امتداده، فبهذه القيم النبيلة (السياسة الناعمة) التي تستحوذ على ألباب الأمم والشعوب، يمكن الانتصار على الأعداء بكل يسر ومرونة، ولكن كما قيل: يا له من دين لو كان له رجال..!

السياسة ليست دنسة .. بل علم شريف

لم ترد كلمة السياسة في القرآن الكريم، ولكننا نجد مشتقات" السياسة " في السنة النبوية المطهرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي) [رواه البخاري].

قال ابن الأثير: (تسوسهم الأنبياء) أي: تتوالى أمورهم، كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه".

قال ابن حجر العسقلاني: " تسوسهم الأنبياء: أي أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله نبياً يقيم لهم أمرهم، ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة".

ونخلص من ذلك أن السياسة: هي القيام على الأمر بما يصلحه من أمر ونهي وتدبير وإصلاح وتربية.

فالسياسة ليست شراً، وليست لعبة قذرة، بل هو علم شريف ونظام مطلوب تعلمه، ولكن بعض البشر قد استغلها في الشر، وما نقل عن بعض العلماء من التعوذ من السياسة في العصر الحديث إنما مرده إلى ما أصابه من تلوث بالكذب والنفاق والمراوغة، عن طريق ساسة معاصرين لم يتورعوا عن منكر إلا وقد ارتكبوه، وخانوا الأمة ولم يتمسكوا لا بكتاب ولا سنة، بل جلبوا القوانين الوضعية الوضيعة؛ والثقافة الغربية الغريبة؛ وغلفوا سياساتهم بشعارات القومية أو الطائفية ليلقوا على مشاريعهم هالة وقداسة، ثم فرضوها على الشعب المسلم بقوة الحديد والنار، حتى تخلى العلامة المجاهد الشيخ سعيد النورسي رحمه الله عن السياسة، ووصف نفسه بسعيد الجديد ، ومن شعاره: أعوذ بالله من الشيطان والسياسة.

ولذلك خرج إلينا من يقول: إن الدين شيء سام نبيل، ولكن محله القلب، ولا ينبغي خلطه بالسياسة، لأن السياسة دنسة، ولا يجوز تلويث الدين بدنس السياسة.

ولما ضاق صدر الشيخ محمد عبده من ألاعيب السياسيين ومكرهم قال قولته الشهيرة: لعن الله ساس يسوس وسائس ومسوس وكل مشتقات السياسة، لأنها ما دخلت شيئاً إلا أفسدته.

فتلقفها أصحاب الهوى ليجعلوها دليلاً على ضرورة ابتعاد علماء الدين وإبعاد الدين نفسه عن السياسة.

وهكذا تعالت الأصوات بالدعوة إلى كف من أسموهم (رجال الدين) عن التدخل في السياسة، وحصروا الدين بما أسموه (المهمة السامية) للدين المنحصرة في تهذيب المشاعر والأخلاق، وبينما تصدَّق علينا بعضهم وقال: لا بأس بأن تتوافق قوانين الأحوال الشخصية مع الدين، إلا أن بعضهم تشدد وقرر أن تكون الحياة الشخصية حرة لا تخضع لضوابط الدين والأخلاق.

ونقول لكل هؤلاء ليس لدينا رهبنة ولا (رجال دين) يحللون ويحرمون برأيهم وأهوائهم، بل عندنا (علماء الدين) وهم غير معصومين، ينحصر دورهم في فهم النصوص وتوضيح الأحكام ضمن الضوابط والقواعد المقررة.

إن السياسة جزء من الدين الإسلامي لا يتجزأ، والإسلام نظام شامل، ومنهج حياة، يتناول مظاهر الحياة كافة، ومشروع حضارة بامتياز؛ فهو دين ودولة، ووطن وأمة، وخلق وقوة، وقضاء وعدالة، وثقافة ودعوة، وجهاد وجيش، كما هو عقيدة وعبادة، سواء بسواء.

ولهذا لا تقبل الأمة مطلقاً فكرة "فصل الدين عن السياسة" ولا عن سائر شؤون الحياة، والتجربة التاريخية للتطبيق الصحيح لهذا الدين الشامل في الواقع؛ أثبتت نجاحاً باهراً، وأنتجت حضارة راشدة في كل المجالات، أما الأخطاء التي حدثت فقد كانت بسبب انحراف بعض الناس، أو سوء التطبيق؛ لا من خلل في المنهج.

الوطن و المواطنة

جاء في المعجم الوسيط أن: "الوطن: مكان إقامَة الإنسان ومقرُّه، وُلد به أو لم يولد".

وتمتدُّ جذور الوطَن والمواطنة إلى آدم عليه السلام وزوجه عندما كانا يَسكنان الجنَّةَ، ويأكلان منها رغدًا حيثُ شاءا، وكانت كلُّ حاجتهما مكفيَّة؛ كما قال الله تعالى لآدم في الجنَّة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾[طه: 118، 119].

ففكرة الوطن والمواطنة نستشفها من قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: 24] فمكان الاستقرار في الأرض هو الوطن، وهذه الآية تدل على أن الأرض كلها في أول الأمر كانت وطناً لآدم عليه السلام وأولاده، من دون تزاحم أو تنافس أو اختصاص بمكان دون آخر، فلما كثرت ذرية آدم وانتشرت، بدأ الناس يتجمعون في أماكن بحكم الطبيعة الاجتماعية للبشر.

وكل كائن حي محتاج إلى وطن ومكان أو مأوى يلوذ به، فالوحوش لها جحورها، والطيور لها أعشاشها، وقد نرى الطيور والأسماك ونحوها تسير المسافات الشاسعة، وقد تخترق البحار والمحيطات ثم تعود إلى أماكنها الأولى، أي إلى أوطانها، لا تضل طريقها إليها، بحاسة الهداية العامة التي منحها الله لكل مخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50].

وقد اعتبر القرآن الكريم النفي عن الوطن ظلما وقسراً؛ جريمة كبرى؛ ومحنة عظمى؛ تستحق أن تقترن في السياق القرآني بجريمة قتل النفس، فخروج الإنسان من دياره كخروج الروح من البدن، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [النساء:66].

فمن حق الشعوب – وفق كتاب الله تعالى– بل من واجبها أن تقاتل وتحمل السلاح لتسترد أرضها وديارها إذا أخرجت منها، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[البقرة: 246].

فقوله تعالى في الآية السالفة (وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا) يؤكد أن شر ألوان الاستعمار والاستكبار في الأرض هو أن يستولي أجنبي على الأرض والوطن ويطرد أهلها منها، ويحل محلهم، كما فعل الصهاينة بفلسطين حيث لم يكتف بالاستيطان، حتى شرَّد أهل الأرض من وطنهم، وشتتهم في الآفاق، وسكن منازلهم، وورث أرضهم ومدنهم وقراهم ومزارعهم وبيوتهم، وهم أحياء، وكأنما لم يكن لهذه الديار ملاك ولا سكان!

إن الحنين إلى الأوطان فطرة إنسانية، فحين هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة، كان حنينهم شديداً إلى مكة، حيث يشعرون بالشوق إليها، وإلى ربوعها وجبالها ووديانها، ودليل ذلك حين التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة عند خروجه منها مهاجراً بدينه وقال: "مكة.. والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إلى قلبي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت".

ولقد عبَّر عن ذلك أبو تمام بقوله:

نقِّلْ فؤادَك حيث شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلَّا للحبيب الأولِ

كم مَنزلٍ في الأرض يَسكنُه الفتى وحنينُه أبدًا لأوَّل منزلِ

وحالياً يُقصد بالمواطنة تساوي أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات، وهو ما يعني أن كافة أبناء الوطن الواحد سواسية من دون تمييز على أساس الدين أو الجنس أو اللون أو الموقف الفكري أو الوضع الطبقي.

ولقد اعترف النبي صلى الله عليه وسلم بـ"المواطنة" بين سكان المدينة من مسلمين مهاجرين وأنصار، من أوس وخزرج، ومن اليهود على اختلاف قبائلهم، لأن المواطنة: تعني العيش المشترك في وطن واحد في المدينة، فوثيقة المدينة المنورة تُعَد سبقًا في الفكر السياسي العالمي، حيث مثَّلتْ هذه الوثيقة دستور الدولة، وهو أساس التعاقد والتعامل بين الجميع.

ونظمت هذه الوثيقة حياة أهل المدينة دون تفريق بينهم، لا في الحقوق ولا في الواجبات، حيث تنص الوثيقة على أن" يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم".

وهكذا الوثيقة لم تقل إن اليهود أمة "من" المؤمنين، وإنما هم أمة "مع" المؤمنين، والمعية تقتضي المغايرة والاتصال معاً، وقد ترتب على هذه الوحدة السياسية مسؤوليات، أهمها أن "اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين" وأن "بينهم النصر على من دهم يثرب".

وأخيراً: فإن الولاء للوطن يعني الولاء للأرض عمارة، وللقوم إحسانًا، وللقانون التزامًا، وللسلطة طاعة في المعروف، وعليه فإنه لا يصح بحال أن تقدم الطائفية والعرقية على الولاء للوطن؛ وذلك لأن هذا – من خلال تجارب الواقع – يؤخِّر كل أطراف الصراع داخل الوطن، ويهدم الأمن والتنمية لكل أبنائه.

الفصل الثاني
من السياسة الشرعية

أبو ذر وعمر.. وإصلاح الفكر

الفكر هو رصيد الأمم، وأساس تطورها، وعليه تقوم دعائم الحضارة، ومقومات المدنية، وعلى قدر ما يكون ذلك الفكر أصيلاً ونابعاً من تأمل وتجربة وعمق ومعرفة وواقع واتزان، بقدر ما تندفع هذه الأمة أو تلك نحو سلم الرقي والتطور.

وإصلاح المجتمع يبدأ من إصلاح الفرد، وإصلاح الفرد يبدأ من إصلاح فكره أولاً، وهكذا كان سلف هذه الأمة، فكرهم يرتفع عن الترهات، ومقاصدهم تسمو على النجوم، ولا أدل على نبل تفكيرهم، وسمو مقاصدهم، وثاقب نظرتهم ما رواه الحاكم في المستدرك: عن عمر رضي الله عنه : أنه قال: لأصحابه : تمنوا فقال بعضهم : أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهباً أنفقه في سبيل الله وأتصدق، وقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة زبرجداً وجوهراً فأنفقه في سبيل الله وأتصدق، ثم قال عمر تمنوا، فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان".

نعم؛ عمر يتمنى رجالاً، كما تمنى أبو ذر رجالاً في الخبر الذي ذكره الجاحظ فقال: (نظر عثمان بن عفان رحمه الله إلى عير مقبلة، فقال لأبي ذر: ما كنت تحب أن تحمل هذه؟ قال أبو ذر: رجالاً مثل عمر)[1].

هذا الحديث من عمر وأبي ذر موجز في ألفاظه، ولكنه في مضمونه كبير جداً، وفيه دلالات بعيدة، فهو يهدينا إلى سر عظمة الأمة المسلمة، وهو ذلك الفكر القيم المستنير بمشكاة النبوة، والذي قاد رعاة الإبل والغنم إلى قيادة الشعوب والأمم.

لقد كان الجيل الأول من هذه الأمة جيلاً قرآنياً فريداً، وموضع القدوة والقيادة في كل شيء ولا سيما في أفكاره وتصوراته.

رحم الله أمير المؤمنين عمر والصحابي الجليل أبا ذر رضي الله عنهما، فلو كان مكانهما أي واحد من رجال عصرنا، لما تردد أن يقول: أود كثيراً من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة..!

1- البيان والتبيين، للجاحظ، بتحقيق عبد السلام هارون، (2 /177). مكتبة الخانجي، القاهرة، 1395هـ/ 1975م.

ولكن هيهات أن يقول ذلك عمر وأبو ذر، وكيف يقوله عمر وهو الذي خبُر الرجال، وكيف يقوله أبو ذر وهو الصحابي الزاهد المتعفف الذي آثر الآخرة على الأولى، وازدرى حطام الدنيا طالباً رضوان الله تعالى، إنه يعيش في عالم أسمى، فهما يتمنيان صلاح البشرية وإنقاذها، وصلاح البشرية لا يقدر عليه الضعفاء والمساكين، وإنما ينهض به الرجال الأمناء الأقوياء بالحق، الأشداء في مواجهة الباطل، الذين يعيشون عدلاً، ويقضون شهداء، أمثال عمر بن الخطاب، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم جميعاً.

وماذا لو حملت قافلة برجال أمثال عمر؟ هل كنت سترى جيوش المنكوبين والفقراء على وجه الأرض؟!

إنها أمنية عظيمة جداً، تمناها عمر وأبو ذر صاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث كانا يفكران في مشكلات الناس، فلا يريان حلاً لها إلا بوجود رجال عظماء أمثال عمر وأبي عبيدة وحذيفة وغيرهم، حيث يُعَدُّون من أرفع النماذج الإنسانية الخالدة.

يريد عمر رجالاً كأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم في الصدق والأمانة والشجاعة ومكارم الأخلاق، كما يريد حلاوة العبادة والطاعة، ومعرفة الحلال والحرام.

ويريد أبو ذر رجالاً أمثال عمر في كل شيء، حيث يتجسد من خلالهم معنى الإسلام، وجمال العدل، وعظمة الإيمان، وسطوة الحق، وصدق الجهاد، وسمو الأخلاق ورفعة النفس، وشفافية المعاملة ونبل المؤمن.

وماذا لو تمنى أبو ذر أن تحمل تلك القافلة متاعاً له؛ أما كان ينفقه ليطعم به الجائع والمسكين والأسير؟! بيد أن أبا ذر وهو يدرك أهمية المال في غسل أحزان المعذبين في الأرض، إنه يعلم أن هنالك ما هو أهم من المال، وهم الرجال الصالحون الذين يحافظون على ذلك المال بأمانة، ويثمرونه بإتقان، وينفقونه بإحسان، ليكون بلسماً للمحرومين، فيمسح عن عيونهم الدموع من أجل إسعاد العالم.

صحيح أن المال يُسكن جروح المحرومين مؤقتاً، ولكن الرجال أمثال عمر وأبي عبيدة وحذيفة بإمكانهم إسكات تلك الجروح بشكل دائم، فما أسرع ما يتلف المال أو يذهب بالإنفاق، ويحتاج السائل إلى غيره من جديد، ولكن لو وُجِدَ العظماء أمثال هؤلاء الجبال من الرجال؛ فإن عدلهم سيملأ الأرض، وسترفرف أعلام الكرم والجود في كل مكان، وستبقى سيرتهم خالدة تعلم الإنسانية وتنير لها إشعاع الخير.

ولا قيمة في ميزان عمر وأبي ذر لمتاع الدنيا كلها لو سيق إليهما في حال الظلم والفساد، حيث إن الظلم في النهاية سيمحق الظالم والمظلوم، ويطال المعطي والمحروم، وينال الفاعل والمتفرج في الحياة، وهو مؤذن بذهاب العمران، وهلاك بني الإنسان، فلا قيمة للحياة مع الظلم حتى ولو اجتمعت للمرء كل أسباب السعادة والرفاه، طالما لم يقم عليها الشرفاء، ولم يحكمها الأمناء مثل عمر وأبي عبيدة، وهذه هي المصلحة الحقيقية لعمر وأبي ذر وغيرهما، ولذلك رغباها بدلاً من المصالح الزائلة التي يتهافت عليها أهل الدنايا من البشر.

واليوم بعد أربعة عشر قرناً من إشراقة الإسلام لو سألت أي عاقل عن أمنياته؛ لحدثك كثيراً عن أشياء لا تتجاوز إطار الماديات بما فيها من إغراء ومتاع في الدنيا قليل..!

ولا أتصور هذا الخراب والدمار الذي دك معاقل أمتنا على وجه الخصوص هو خراب صوري، بل هو خراب جذري، جاء نتيجة لسبب مهم وهو خراب الإنسان من داخله، وبالتحديد من خراب الأفكار أو من سوء ترتيبها، فالواجب على المهتمين بإصلاح الإنسان وبناء الأوطان في عالمنا الإسلامي أن يهتموا بشكل قوي وفعَّال ببناء العقل المسلم، وصياغة الفكر عند شباب هذه الأمة.

وإذا أردنا صلاح شأننا وإصلاح حالنا والعالم من حولنا، فعلينا أن ننشئ جيلاً أقدامه في الأرض وأحلامه في السماء، كما ينبغي الاستفادة من أهم أسلحة العصر وهي العلم والمعرفة، ومن خبرات الأمم والشعوب في شتى الميادين، ليكون لدى الإنسان بصيرة قوية من داخله تحصنه من الوقوع في مستنقع التيه والضلال.

بين الانتقاص .. وتقديس الأشخاص!

إن الناس من الناحية النظرية يزعمون أنهم لا يدّعون العصمة لغير الأنبياء والمرسلين ولا الكمال لأحد من الناس وأن كُلاً يؤخذ من قوله ويُرد إلا من ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم:3] هذا هو ما يقال نظرياً، وكلهم يتمثل قول الشاعر:

إن كنتُ أسأت في هواكم أدبي فالعصمة لا تكون إلا لنبي

أما من الناحية العملية؛ فإن الناس لا يقبلون مراجعة من منحوه ثقتهم، ولا التدارك عليه ولا كشف ما وقع فيه من أخطاء، ومهما حاول الباحث إقناعهم فإنهم لا يصغون إليه، فضلاً عن أن يتقبلوا التصحيح الذي يقترحه وهم يخضعون لمنطق مغلق لا مجال فيه للنقاش الموضوعي، فهم يعتقدون أن هذا الذي حاز ثقتهم لابد أنه مطلع على ما يورده المستدرِك؛ فلا يتصورون أن تغيب عنه معلومة ولا أن يخفى عليه دليل.

إننا بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الابتعاد عن تقديس الأشخاص، فتقديس البشر يعتبر مصنعاً لإنتاج التخلف وتوزيع الجهل وزرع الاستبداد، وتعطيل مسيرة الحياة الطبيعية.

ورغم اتفاقنا جميعاً على حديث (كل ابن آدم خطاء) إلا أننا مبتلين بمرض تقديس الأشخاص، فما إن يبزغ نجم شخص من الأمة في مجال أو تخصص، علمي كان أو فكري، حتى تبادر مجموعة من الجهلة بطبيعة الإنسان إلى وضع هالة من القدسية حوله، تجعل نقد ما يقول أو يفعل من الموبقات التي قد تدفع بمعجبيه إلى خوض حرب ضروس إن لم تكن باليد والسنان، فبالقلم واللسان؛ ضد أي شخص آخر يحاول نقد هذا العالم أو المفكر وتصحيح بعض أخطاء ما قال أو كتب.

رغم أن المتميزين أنفسهم يعرفون أكثر من غيرهم بأن النقائص ملازمة لهم، وأن التميز لا يأتي إلا وهو مغمور بالنقص، وكما يقول العماد الأصفهاني: "إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يوم إلا وقال في غيره لو غيِّر هذا لكان أحسن؛ ولو زيد كذا لكان يستحسن؛ ولو قدّم هذا لكان أفضل؛ ولو تُرك هذا لكان أجمل؛ وهذا من أعظم العبر؛ وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر".

أما غاية التعظيم وكماله فلا يكون إلا لله وحده لا شريك له، لما له من صفات العظمة ونعوت الجلال والكمال، فأسماؤه حسنى كما قال سبحانه: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 180] وأفعاله كلها حكمة كما وصف نفسه فقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16]، وشرعه كله عدل كما قال جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50] ونعمه سابغة على عباده قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34].

وعلى ضوء ما سبق لا بد للأجيال القادمة أن تفهم بشكل عقلاني أن تقديس الأشخاص مرض نفسي يحتاج علاجاً واقعياً وفهماً صحيحاً بعيداً عن التعصب، فبعض العقليات السائدة هذه الأيام؛ تحاول تصوير نقد العلماء ورجال الفكر والسياسة على أنه خيانة عظمى في حق هذا العالم أو ذلك المفكر، وأصحاب هذا التعصب الأعمى لا يدركون أن النقد الهادف والبناء أداة تساعد على تصحيح أخطاء المنتقَد إن كانت له أخطاء، وهذا لا يغض من مقامه أصلاً، وقد آن الأوان أن يفهم الجميع، خصوصاً جيل الشباب أن لا أحد فوق النقد مهما كان، فبميزان النقد يمكن تقويم الخلل والخطأ.

ولو انطلق المقدسون للأشخاص اليوم من القاعدة التي انطلق منها جهابذة الأمة قديماً؛ وفهموا معاني الكلمات الخالدة للإمام مالك رحمه الله تعالى لابتعدوا عن تقديس الأشخاص، فالإمام مالك قال: "ما وافق مذهبي من الكتاب والسنة فخذوا به؛ وما لا فاضربوا به عرض الحائط" وقال أيضاً: "كل كلام يؤخذ منه ويرد إلا كلام صاحب هذا القبر ، وأشار إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم".

فتقديس الأشخاص مرض وبيل ومشكلة تعترض تقدم الأمة، ولعلاج هذه المشكلة لا بد من الاعتراف بالنقد البناء الذي يبرز الإيجابيات ويشيد بها، ويعالج السلبيات ويصححها، بأسلوب يبتعد عن التجريح وانتقاص ذات الشخص الذي نريد نقد بعض أفكاره وآرائه.

حكم الإقامة في بلاد غير المسلمين

طلب مني بعض الإخوة أن أكتب في بعض الأحكام التي تخص المغتربين والمقيمين في بلاد غير المسلمين، والموضوع في هذا الشأن شائك وذو ذيل طويل، ويمكن للتفاصيل مراجعة أهل العلم وقراءة الكتب المختصة في هذا الميدان، ولكن لا بأس بأن أخوض في بعض الأحكام الضرورية مبيناً حكم الإسلام من خلال مقاصد الشريعة وما نفهمه من أقوال بعض أهل العلم في ذلك، ورأيت أن الكتابة في مثل هذه المواضيع المختلفة بين الفينة والأخرى تنير الطريق أمام الإخوة المغتربين، لذا سأبدأ اليوم بدراسة حكم الإقامة في بلاد غير المسلمين، وعسى أن تتاح لي الفرصة في وقت آخر لدراسة بعض المسائل المهمة الأخرى.

لا يختلف اثنان على أن ترك الأوطان أمر في غاية الصعوبة، فقد جُبل الإنسان على حب المكان والأرض التي ولد وترعرع فيها، ففيها جذوره وأصوله وأرحامه وذكرياته وطفولته، وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك الحب والتعلق حين خرج من وطنه ومكان ولادته ونشأته مكة مهاجرا إلى المدينة المنورة، فقال: (وَاَللّهِ إنّك لَأَحَبّ أَرْضِ اللّهِ إلَيّ وَإِنّك لَأَحَبّ أَرْضِ اللّهِ إلَى اللّهِ وَلَوْلَا أَنّ أَهْلَك أَخْرَجُونِي مِنْك مَا خَرَجْت)[1].

إلا أن أسباباً كثيرة قد تدفع الإنسان إلى ترك بلده ووطنه، أهمها: طلب العلم والمعرفة التي قد لا تكون متوفرة وميسورة في بلده، وكذلك الحروب التي يطال أثرها المدنيين ولا تقتصر على المقاتلين في الوقت المعاصر، وما تسببه من خوف وذعر بين الناس على أنفسهم وأهليهم وأولادهم، بالإضافة لطلب الرزق والتوسع منه، ناهيك عن الهجرة فراراً بالدين، والتي تعتبر من أعظم أنواع وأسباب الهجرة قديما وحديثا، ومنها هجرة المسلمين إلى الحبشة والمدينة المنورة.

كما لا أرى جواز السفر بالطرق غير الشرعية، أو التي تحفها المخاطر، لما في ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :"لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يعرض نفسه من البلاء لما لا يطيق" [رواه الترمذي].

[1]- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للسهيلي 133/4.

أما حكم الإقامة في بلاد غير المسلمين فبداية نشير إلى حكم الإقامة هناك أصلًا، فإنها لا تحرم وتجوز مع القدرة على إقامة شعائر الدين، ولا تجوز مع العجز عن إظهار الدين، قال المرداوي في كتابه الإنصاف: "تجب الهجرة على من يعجز عن إظهار دينه في دار الحرب" اهـ.

وقد عَّرف الفقهاء (دار الإسلام ودار الحرب) بتعريفات وضوابط متعددة يمكن تلخيصها فيما يلي:

دار الإسلام هي: الدار التي تجري فيها الأحكام الإسلامية، وتحكم بسلطان المسلمين، وتكون المنعة والقوة فيها للمسلمين.

ودار الحرب هي: الدار التي تجري فيها أحكام الكفر، أو تعلوها أحكام الكفر، ولا يكون فيها السلطان والمنعة بيد المسلمين.

قال الإمام أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: "تعتبر الدار دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها، وإن كان جُلُّ أهلها من الكفار، وتعتبر الدار دار كفر لظهور أحكام الكفر فيها، وإن كان جلُّ أهلها من المسلمين"[1].

وقال الإمام ابن القيم: "دار الإسلام هي التي نزلها المسلمون، وجرت عليها أحكام الإسلام، وما لم يجرِ عليه أحكام الإسلام لم يكن دار إسلام وإن لاصقها"[2].

ويقول الإمام ابن مفلح: "فكل دار غلب عليها أحكام المسلمين فدار الإسلام، وإن غلب عليها أحكام الكفر فدار الكفر، ولا دار لغيرهما"[3].

وإذا عرفت هذا استطعت التمييز بين دولة وأخرى من حيث كونها دار إسلام، أو دار حرب.

وجاء في الموسوعة الفقهية: "إقامة المسلم في دار الحرب لا تقدح في إسلامه، إلا أنه إذا كان يخشى على دينه بحيث لا يمكنه إظهاره تجب عليه الهجرة إلى دار الإسلام.

1- المبسوط للسرخسي: 144/10.

2- أحكام أهل الذمة: 266/1.

3- الآداب الشرعية لابن مفلح: 213/1.

أما إذا كان لا يخشى الفتنة، ويتمكن من إظهار دينه، مع إقامته في دار الحرب، فإنه يستحب له الهجرة إلى دار الإسلام لتكثير المسلمين، ومعونتهم، ولا تجب عليه الهجرة. اهـ.

والمحقُّقون من العلماء قالوا: إن مدار الحكم على بلدٍ بأنه بلدُ إسلامٍ أو بلد حرب هو الأمن على الدين، حتى لو عاش المسلم في بلد ليس له دين، أو دينه غير دين الإسلام ، فمتى استطاع المسلم أن يمارس شعائر دينه بحريَّةٍ فهو في دار إسلام، بمعنى أنه لا تجب عليه الهجرة منها.

قد ذكر العلامة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله في رسالة عن نظرية الحرب في الإسلام رأيين للفقهاء في دار الإسلام ودار الحرب، ثم اختار رأيَ أبي حنيفة وهو:

"أن مدار الحكم هو أمن المسلم، فإن كان آمنًا بوصف كونه مسلمًا فالدار دار إسلام، وإلا فهي دار حرب. وقال: إنه الأقرب إلى معنى الإسلام، ويوافقُ الأصلَ في فكرة الحروب الإسلامية وأنها لدفع الاعتداءِ". اهـ

ومن الأدلة الأصلية في جواز الإقامة في بلاد الكفار والمشركين لمن يتمكن من إظهار شعائر دينه الحديث الذي ذكره ابن حبان في صحيحه برقم: (4861):

وهو حديث فديك رضي الله عنه وكان قد أسلم، وأراد أن يهاجر فطلب منه قومه وهم كفار أن يبقى معهم، واشترطوا له أنهم لن يتعرضوا لدينه، ففر فديك بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنهم يزعمون أنه من لم يهاجر هلَكَ! فقال النبي عليه الصلاة والسلام حسب الحديث الذي يرويه ابن حبان: "يا فديك أقم الصلاة، واهجر السوء، واسكن من أرض قومك حيث شئت"، وظن الراوي أنه قال: "يكن مهاجراً."

إذنً يجب أن نعي هذه الألفاظ كاملة: (أقم الصلاة)، فمن يريد أن يقيم في دار الكفر فعليه أن يجعل من هذا الحديث دستوراً لحياته. "أقم الصلاة واهجر السوء" أي: اترك الأعمال السيئة، ولا ترتكب الفواحش، ولا تشرب خمراً، "وأقم من دار قومك حيث شئت"، وحديث ابن حبان رجاله ثقات.

والحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده برقم: (1420) وفيه: "البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، وحيثما أصبت خيراً فأقمك".

فهذا الحديث أصل في الإقامة في بلاد الكفر لمن يستطيع أن يظهر شعائره، وبصفة عامة فإن ثلاثة من المذاهب تميل إلى جواز هذه الإقامة، وهي: الشافعية، والحنابلة والأحناف، مع خلاف داخل هذه المذاهب، أما مالك رحمه الله تعالى والظاهرية فهؤلاء لا يجيزون الإقامة في دار الكفر، ويعملون بأحاديث أخرى منها: "لا تراءى ناراهما"، [رواه أبو داود برقم: (2645)، والترمذي برقم: (1604)، والنسائي برقم: (4780) من حديث جرير بن عبد الله].

قال ابن قدامة: "وقد كان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم مقيماً بمكة مع إسلامه، وروينا: أن نعيم النحام، حين أراد أن يهاجر، جاءه قومه بنو عدي، فقالوا له: أقم عندنا، وأنت على دينك، ونحن نمنعك ممن يريد أذاك، واكفنا ما كنت تكفينا، وكان يقوم بيتامى بني عدي وأراملهم، فتخلف عن الهجرة مدة، ثم هاجر بعد، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "قومك كانوا خيراً لك من قومي لي، قومي أخرجوني، وأرادوا قتلي، وقومك حفظوك ومنعوك"، فقال: يا رسول الله: بل قومك أخرجوك إلى طاعة الله، وجهاد عدوه، وقومي ثبطوني عن الهجرة، وطاعة الله، أو نحو هذا القول"[1].

ومن الفائدة بمكان أن أنقل هنا فتوى الإمام الرملي حينما "(سُئِلَ) عَنْ الْمُسْلِمِينَ السَّاكِنِينَ فِي وَطَنٍ مِنْ الْأَوْطَانِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ، يُسَمَّى (أرغون)، وَهُمْ تَحْتَ ذِمَّةِ السُّلْطَانِ النَّصْرَانِيِّ، يَأْخُذُ مِنْهُمْ خَرَاجَ الْأَرْضِ بِقَدْرِ مَا يُصِيبُونَهُ فِيهَا، وَلَمْ يَتَعَدَّ عَلَيْهِمْ بِظُلْمٍ غَيْرِ ذَلِكَ، لَا فِي الْأَمْوَالِ وَلَا فِي الْأَنْفُسِ، وَلَهُمْ جَوَامِعُ يُصَلُّونَ فِيهَا، وَيَصُومُونَ رَمَضَانَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَفُكُّونَ الْأُسَارَى مِنْ أَيْدِي النَّصَارَى إذَا حَلُّوا بِأَيْدِيهِمْ، وَيُقِيمُونَ حُدُودَ الْإِسْلَامِ جَهْرًا كَمَا يَنْبَغِي، وَيُظْهِرُونَ قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ عِيَانًا كَمَا يَجِبُ، وَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُمْ النَّصْرَانِيُّ فِي شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِهِمْ الدِّينِيَّةِ، وَيَدْعُونَ فِي خُطَبِهِمْ لِسَلَاطِينِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ شَخْصٍ، وَيَطْلُبُونَ مِنْ اللَّهِ نَصْرَهُمْ وَهَلَاكَ أَعْدَائِهِمْ الْكُفَّارِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَخَافُونَ أَنْ يَكُونُوا عَاصِينَ بِإِقَامَتِهِمْ بِبِلَادِ الْكُفْرِ، فَهَلْ تَجِبُ عَلَيْهِمْ الْهِجْرَةُ، وَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ إظْهَارِ الدِّينِ، نَظَرًا إلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى أَمَانٍ أَنْ يُكَلِّفُوهُمْ الِارْتِدَادَ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى، أَوْ عَلَى إجْرَاءِ أَحْكَامِهِمْ عَلَيْهِمْ ؟ أَوْ لَا تَجِبُ نَظَرًا إلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ الْحَالِ الْمَذْكُورِ... ؟

1- انظر: المغني لابن قدامة:513/10 مع الشرح الكبير.

(فَأَجَابَ) بِأَنَّهُ لَا تَجِبُ الْهِجْرَةُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَطَنِهِمْ؛ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى إظْهَارِ دِينِهِمْ بِهِ، وَلِأَنَّهُ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ عُثْمَانَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ إلَى مَكَّةَ لِقُدْرَتِهِ عَلَى إظْهَارِ دِينِهِ بِهَا، بَلْ لَا تَجُوزُ لَهُمْ الْهِجْرَةُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ يُرْجَى بِإِقَامَتِهِمْ بِهِ إسْلَامُ غَيْرِهِمْ، وَلِأَنَّهُ دَارُ إسْلَامٍ، فَلَوْ هَاجَرُوا مِنْهُ صَارَ دَارَ حَرْبٍ، وَفِيمَا ذَكَرَ فِي السُّؤَالِ مِنْ إظْهَارِهِمْ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ، وَعَدَمِ تَعَرُّضِ الْكُفَّارِ لَهُمْ بِسَبَبِهَا عَلَى تَطَاوُلِ السِّنِينَ الْكَثِيرَةِ، مَا يُفِيدُ الظَّنَّ الْغَالِبَ بِأَنَّهُمْ آمِنُونَ مِنْهُمْ مِنْ إكْرَاهِهِمْ عَلَى الِارْتِدَادِ عَنْ الْإِسْلَامِ، أَوْ عَلَى إجْرَاءِ أَحْكَامِ الْكُفْرِ عَلَيْهِمْ، وَاَللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنْ الْمُصْلِحِ"[1].

وإذا جاز للمسلم أن يقيم في دار الحرب: فله أن يعامل أهلها بالبيع والشراء في غير السلاح، وما يستعان به على قتال المسلمين، ومثل البيع والشراء: أنواع الإجارات غير الدنيئة، ومنها التطبيب والتعليم وغيرها.

قال السرخسي في المبسوط: "لا يمنع التجار من دخول دار الحرب بالتجارات، ما خلا الكراع، والسلاح، فإنهم يتقوون بذلك على قتال المسلمين، فيمنعون من حمله إليهم، وكذلك الحديد، فإنه أصل السلاح، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[2]" اهـ.

وقال السرخسي في شرح كتاب السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني (132 - 189هـ :

"لا بأس بأن يحمل المسلم إلى أهل الحرب ما شاء، إلا الكراع، والسلاح، والسبي، وألا يحمل إليهم شيئًا أحب إليَّ؛ لأن المسلم مندوب أن يستبعد من المشركين، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تستضيئوا بنار المشركين"، وقال: "أنا بريء من كل مسلم مع مشرك لا تراءى ناراهما"، وفي حمل الأمتعة إليهم للتجارة نوع مقاربة معهم، فالأولى ألا يفعل، ولأنهم يتقوون بما يحمل إليهم من متاع، أو طعام، وينتفعون بذلك، والأولى للمسلم أن يحترز عن اكتساب سبب القوة لهم، إلا أنه لا بأس بذلك في الطعام، والثياب، ونحو ذلك؛ لما روي أن ثمامة بن أثال الحنفي أسلم في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقطع الميرة عن أهل مكة، وكانوا يمتارون، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه

1- فتاوى الرملي الفقيه الشافعي:1/53-54.

2 - الحديد:25.

أن يأذن له في حمل الطعام إليهم، فأذن له في ذلك، وأهل مكة يومئذ كانوا حربًا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فعرفنا أنه لا بأس بذلك، وهذا لأن المسلمين يحتاجون إلى بعض ما في ديارهم من الأدوية، والأمتعة، فإذا منعناهم ما في ديارنا، فهم يمنعون أيضًا ما في ديارهم". اهـ.

وفي هذا الكلام فائدة عظيمة وملمح لا بد من مراعاته، وهو أن حاجة المسلمين لبعض ما عند الكفار من العلوم، والصناعات، والتقنيات الحديثة، قد توجب عليهم، أو على بعضهم أن يهادنهم، وأن يرسل البعثات العلمية إليهم، وأن يقيم معهم علاقات تجارية واسعة، فينبغي لمن ابتلي بذلك أن يجتهد في حفظ دينه أولًا، وأن ينوي نفع المسلمين، وصلاح أحوالهم ثانيًا.

أما الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن جرير –رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سارية إلى خثعم، فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأمرهم بنصف العقل، وقال" : أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين."

فقد قال الحافظ ابن حجر: "هذا محمول على من لم يأمن على دينه" والوقوف على المناسبة التي ورد فيها النهي يؤكد هذا المعنى الذي ذكره ابن حجر رحمه الله تعالى.

وبهذا يعلم أن الإقامة في بلاد غير المسلمين، سواء لفترة محدودة أم على سبيل الاستيطان، جائز ومباح بشرطين اثنين:

1- القدرة على إظهار شعائر الدين، فلا تجوز الإقامة مع العجز عن إظهار شعائر الدين.
2- أمن الفتنة، فلا تجوز الإقامة مع خوف الفتنة .

ولعلنا أن نضيف شرطاً ثالثاً في هذا الزمان وهو :

3- أن يستطيع أن يربي أولاده تربية إسلامية.

أخيراً نقول: من استغنى عن الإقامة عندهم: بتوفر ما يحتاجه من العلم، أو التجارة، أو الصناعة أو غير ذلك في بلاد المسلمين، فالأفضل أن يبادر بالرجوع إليها؛ لما يترتب على السكنى بين ظهراني الكفار من محاذير جسيمة، ومخاطر عظيمة، وتظهر هذه المحاذير بشكل خاص في تربية الأبناء ومستقبلهم؛ فإنهم

يتربون على عادات وتقاليد مخالفة للدين والعرف والمجتمع، وما القانون الذي أقروه أخيراً في أمريكا وغيرها من إباحة (الزواج المثلي) عنا ببعيد..!

رفق الحاكم بالرعية

الرفق من الأخلاق العظيمة، التي عَمِلَ بها النبي صلى الله عليه وسلم وحَثَّ عليها ورَغّب فيها، في كافة الشؤون والمواقف، وفي كل الظروف والأحوال، وفي كل زمان ومكان، ومع الإنسان وغير الإنسان، لذلك يطلب من المسلم أن يكون رفيقاً رقيقاً، لطيفاً رحيماً، رؤوفاً عطوفاً، فالمسلم كما هو رفيق مع أهله وأحبابه، رفيق مع جيرانه، ومع زملائه، ومع من تربطهم به أدنى علاقة، ومع من يلتقي بهم في الشارع أو في السوق، أو في وسيلة نقل، أو في أي مكان آخر.

فهو الرَّفيق سواء أكان طالباً أم أستاذاً، تاجراً أم مستهلكاً، مديراً أم موظفاً، أجيراً أم ربَّ عمل، خادماً أم مخدوماً، حاكماً أم محكوماً.

وكلنا نعلم ونسمع عن رفق الداعية بالحاكم في الخطاب والمعاملة، كما قال الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [سورة طه: 43-44].

ولكن قلما يذكر العلماء بين العامة رفق الحاكم بالرعية، وسأذكر هنا صوراً شتى في رفق الأمير بالرعية، ولين الحاكم بالمحكوم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَمِعْتُ مِنْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي هذا: (اللهم مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتي شيئاً فشَقّ عليهم، فاشْقُقْ عليه، ومَنْ وَلِيَ مِنْ أمرِ أُمَّتي شيئاً فرَفَقَ بهم، فارْفُقْ به) [أخرجه مسلم باب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل].

وبوَّب له النوويُّ: (باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحثّ على الرِّفق بالرَّعيَّة، والنهي عن إدخال المشقّة عليهم).

وعلَّق عليه بقوله: (هذا من أبلغ الزواجر عن المشقَّة على الناس، وأعظمِ الحثِّ على الرِّفق بهم، وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى) [شرح صحيح مسلم، للنووي: 12/ 213].

وبلغ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيّته اشتكَوْا من عُمّاله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيتها الرّعية إن لنا عليكم حقاً: النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير. أيتها الرُّعاة، إن للرعية عليكم حقاً، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز من حلمِ إمامٍ ورِفقه..."[1].

وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى يخطب يقول: (إنَّ مِن أحبِّ الأمور إلى الله: القصدَ في الجِدَة، والعفوَ في المقدرة، والرِّفقَ في الولاية، وما رفَقَ عبدٌ بعبدٍ في الدنيا إلا رفَقَ الله به يوم القيامة) [أخرجه ابن أبي شيبة في المصنَّف: 7/ 182 برقم: 35078].

والجِدَة: الاستقامة والاعتدال في الإنفاق مع وجود المال، فلا تبذير ولا تقتير.

وروى أحمد بن يزيد المهَلَّبي عن أبيه قال: قال لي المتوكِّل يوماً: يا مُهَلَّبي، إن الخلفاء كانت تتصعَّبُ على الرَّعِيَّة لتطيعها، وأنا ألين لهم ليجيئوني ويطيعوني [تاريخ بغداد: 7/ 166].

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميراً على جيش أو سَرِيَّةٍ أوصاه في خاصَّتِه بتقوى الله، ومَنْ معه من المسلمين خيراً...)) [الحديث أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث].

قال الإمام النووي يرحمه الله: (في هذه الكلمات من الحديث... استحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرِّفقِ بأتباعهم...) [شرح صحيح مسلم، للنووي: 12/ 37].

وكان من رفقه صلى الله عليه وسلم بأصحابه أنه كان حريصاً على طَمْأنتهم وإيناسهم، ودفع الخوف والفزع عنهم:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أحسنَ النَّاسِ وأجودَ النَّاسِ وأشجعَ النَّاسِ، ولقد فزِع أهلُ المدينةِ ذاتَ ليلةٍ فانطلقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ، فاستقبلَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قد سبَقَ النَّاس إلى الصَّوت وهو يقول: ((لم تُرَاعُوا، لم تُرَاعُوا)) وهو على فرس لأبي طلحةَ عُرْيٍ ما عليه سَرْجٌ، في عنقِه سَيْف... الحديث [رواه البخاري في كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء].

1- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي: 3/ 198.

قال ابن حجر: "قوله: (فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم قد سبق الناس إلى الصوت) أي: أنه سبق فاستكشف الخبرَ فلم يجد ما يُخاف منه فرجع يُسَكِّنُهم. وقوله: (لم تراعوا) هي كلمة تقال عند تسكين الرَّوْع؛ تأنيساً وإظهاراً للرِّفْق بالمخاطَب"[1].

وأخيراً: من أعطي حظه من الرفق واللين فقد أعطي حظه من خيري الدنيا والآخرة، ومن حُرِمَ الرفق فقد حُرم حظه من الخير، نعوذ بالله تعالى من ذلك، ويجب على العبد المسلم أن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في رفقه ولينه، لقول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: 21].

1- فتح الباري لابن حجر: 10/ 472.

ساهم ولو بلبنة في القوة الناعمة

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن حتمية المواجهة مع الغرب، و بدأت كتابات غربية كثيرة تحضّر لمثل تلك المواجهة، فبعضهم يحضر بقصف مدفعي إعلامي وسياسي كثيف يهدف إلى طرد المسلمين من أوروبا ومنع الهجرة إليها، ومنهم من يريد تطويع وصهر المسلمين في البوتقة الأوربية والفوز بالعقول والقلوب واحتواء ذلك المد الإسلامي.

وتبرز أهمية القضية ما اصطلح على تسميته بـ "صراع الحضارات"، فتلك المقولة التي أطلقها صمويل هنتنجتون في التسعينيات بعد زوال الاتحاد السوفيتي؛ تفتش في أصول الحضارات وتتنبأ بانقسام جديد للعالم؛ يتمحور حول سبع حضارات كبرى، وأن المواجهة حتمية مع الإسلام في السنوات القادمة، ولكي لا تتحول تلك المواجهات الفكرية إلى مواجهات دموية؛ يجب على المسلمين أن يعوا حقيقة هامة ومحورية، وهي أن الحضارة الإسلامية تظل هي الحضارة الأعلى بمكوناتها الدينية والثقافية والإنسانية، بالرغم من أنه في ذيل القائمة، إلا شيء واحد وهو حضارتهم الإسلامية، والتي هي مكمن "قوتهم الناعمة" التي لا يقف أمامها شيء بالرغم من التخلف المادي للمسلمين، الذين باتوا يستوردون كل شيء من الجهات الأربع، وباتوا عالة على المجتمع الدولي.

و"القوة الناعمة" هو مصطلح كان أول من أطلقه السياسي الأمريكي جوزيف ناي، الذي ألف كتابًا بهذا الاسم، و"القوة الناعمة" تعني قوة الإقناع والحجة دون استخدام القوة، حيث تجعله يسير خلفك تلقائياً، وهو المعنى الذي حدثنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال:

"لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه" رواه الشيخان.

وهو المعنى الذي قاله ابن خلدون في مقدمته بأن:" المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه و نحلته و سائر أحواله وعوائده"، تلك هي "القوة الناعمة" لأي حضارة كانت.

وبالنظر إلى الواقع نجد أن هذت هي القوة الوحيدة الباقية إلى اليوم، فبالرغم من أننا أصبحنا في ذيل الأمم، وتكالبت علينا تكالب الأكلة على قصعتها، فإن عدد المسلمين في ازدياد مضطرد، وبخاصة في الغرب إنها القوة الناعمة، ولذلك ينبغي علينا تفادي المواجهة العسكرية؛ لأنها ليست في صالح المسلمين بحال من الأحوال، وذلك لتأخرنا في جميع النواحي المادية والمعنوية.

ومع اندلاع الثورات العربية انتقل المسلمون خطوة إلى الأمام لردم الهوة مع الغرب، فالنموذج الأكثر تخلفاً لدى المسلمين اليوم هو الحكم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة" [رواه أحمد وصححه الحاكم].

وهذه الصحوة في نظام الحكم يعد خطوة نحو تقوية وتمكين الحضارة الإسلامية وترسيخ تفوقها في قوتها الناعمة.

ولكن علينا أن نعلم أن المسلمين لا يمكنهم أن يؤثروا في الآخرين ما داموا لم ينظموا بيتهم الداخلي أولاً، لذا علينا جميعاً أن نساهم ولو بلبنة في هذا البناء الشامخ الذي يتكوَّن الآن وهو القضاء على أهم سبب في تخلف الحضارة الإسلامية ألا وهو الحكم العضوض أو الجبري الذي أدى إلى تأخر المسلمين.

من هم أولو الأمر؟

إن النوازل السياسية التي تمر بها أمَّتُنا هي من النوازل الكبرى، والتي خصص الله لها أناسًا يحق لهم الكلام فيها، تشخيصًا وتخطيطًا وعلاجًا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83].

ولكن ما المراد بـ(أولي الأمر والاستنباط) الواردِ ذِكرُهم في هذه الآية؛ فإن معرفتهم من الأهمية بمكان؟

بداية فإن كلمة (الأمر) من حيث المعنى العام في قوله: ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾: تشمل كلَّ أمر وإن دخلت عليها (أل)؛ لأن الكلمة جاءت في الآية قبلُ بالتنكير: ﴿أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ [النساء: 83]، والألف واللام جاءت معها بعدُ للعهد.

وعليه، فإن قيل: إن الأمر هنا يعني: العلم، فهي إذًا تشمل كل العلوم: القرآن، والحديث، واللغة، والعقيدة، والفقه، كما تشمل علوم السياسة والواقع، والنفس والمجتمع، والتربية والأخلاق، بل تشمل أيضًا علوم الاقتصاد والحرب، والبيئة والمناخ، والطب والفيزياء والكيمياء، والحساب والهندسة ... ويصاحب كلَّ ذلك في كل فرد منهم: رجاحةُ عقل، وحسن فكر، وأن يكون ثقة عدلًا.

وإن قيل: إن الأمر هنا يعني: الإمارة والسلطة، فهو إذًا يشمل – بالإضافة إلى ما سبق – أن يكونوا من أصحاب النفوذ والسلطان، أو أن يكونوا مرخَّصين من ذوي السلطة والملك؛ ولذلك يسميهم الفقهاء: (أهل الحَلِّ والعقد) أي: مَن بأيديهم القرار، وهذا المعنى يؤيِّدُه سبب نزول الآية في أمراء سرايا الحرب؛ رواه البخاري ومسلم، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

وأما المعنى الدقيق للآية، فيشير إلى الذين يعرفون ويُحسِنون استنباطَ الأحكام من النصوص الشرعيَّة في النوازل الكبرى، التي تتعلَّق بأمن الناس وخوفهم، وقطعًا هذا لا يتأتَّى لعالِمٍ في العلوم الشرعية ليس له علمٌ بالعلوم الأخرى، أو ليس له تعاون مع من يُوثَق بعلمهم من المتخصصين في العلوم الأخرى، فضلًا عن أن يكون له تأثير إن لم يكن من أهل القرار والقدرة.

ومن هنا، فإن الفتوى في النوازل الكبرى منوطةٌ بهيئات ومؤسسات تجتمع فيها هذه الصفات، وليست بـ(أفراد)، ولا حتى (جماعات) ينقصها بعضُ ما تحتاجه النازلات.

ولذلك؛ كان من جميل بلاغة القرآن: التعبير بلفظ (أولي)، وهو لفظ "لا يفرد له واحد، ولا يأتي إلا مضافًا"؛ كما في لسان العرب لابن منظور، وكأن القرآن يريد أن يخبرنا في إشارة لغوية لطيفة عن استحالة توفر هذه الإمكانيات في واحد من البشر عدا الأنبياء.

وهذا الذي سبق شرحه، هو في الحقيقة ملخَّص يجمع بين أقوال وآراء السلف الصالح وأهل العلم قديمًا وحديثًا حول هذه القضية، ومع ذلك نجد من أهل العلم من أشار إلى مجموع هذه الصفات إشارةً حسنة، وبعضهم ركَّز على شيء دون شيء، وكلامُهم جدير بالإشهار والإظهار؛ ليكون الناس على بيِّنة من أمرهم.

فمما يذكر من أقوالهم على سبيل المثال ما يلي:

قال الزجاج في "تفسيره": "وجملة (أُولِي الْأَمْرِ﴾ من يقوم بشأن المسلمين في أمر دينهم وجميع ما أدَّى إلى صلاحهم".

وقال البغوي في "تفسيره": "﴿ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾؛ أي: ذوي الرأي".

وقال الجصاص في "تفسيره": "يجوز أن يريد به الفريقين من أهل الفقه والولاة؛ لوقوع الاسم عليهم جميعًا، فإن قيل: أولو الأمر من يملك الأمر بالولاية على الناس، وليست هذه صفة أهل العلم، قيل: له إن الله تعالى لم يقل: من يملك الأمر بالولاية على الناس، وجائز أن يسمَّى الفقهاء أولي الأمر؛ لأنهم يعرفون أوامر الله ونواهيه، ويلزم غيرَهم قَبولُ قولهم فيها، فجائز أن يسموا أولي الأمر من هذا الوجه، كما قال في آية أخرى :﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]، فأوجب الحذر بإنذارهم، وألزم المنذَرين قبول قولهم".

وقال الخازن في "تفسيره": "﴿ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾؛ يعني: ذوي العقول والرأي والبصيرة بالأمور منهم".

وقال السعدي في "تفسيره": "﴿ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾: أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرَّزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها ... ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم﴾ [النساء: 83]؛ أي: يستخرجونه بفكرِهم وآرائهم السديدة، وعلومِهم الرشيدة".

وجاء في "التفسير الوسيط" – لمجموعة من علماء الأزهر: "﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾: أولي الحَلِّ والعَقْد من المسلمين".

فيجب على المسلمين من أهل العلم خاصة ألَّا يكون هناك فتاوى فردية، وأن يكون هناك بيانات واضحة جلية لشباب الأمة؛ على قاعدة التعاون والتشاور على إقامة المصالح وإماتة المفاسد؛ حتى لا يكون اضطراب وفساد.

نحن والغرب .. وثقافة العداء

في العقود الأخيرة هبت رياح ثقافة جديدة ناتجة عن رواسب واحتقانات أفرزتها جدلية الشرق والغرب، وتقودنا هذه الثقافة الآن نحو إشكالات لا يُحمد عقباها إن لم تُعالج من جذورها، وأعتقد أن جُل نكبات عالمنا المعاصر أساسها فكري ثقافي اجتماعي، وهي في الأصل أعراض لأمراض أنتجتها عقلياتنا وقناعاتنا وتذبذب إيماننا بالقيم الإسلامية التى فُطرنا عليها والتي تنادي بحرمة الدم، وعدم الإكراه في الدين، ونبذ الحرابة، والشورى، وحرمة المال والعرض، وإشهار كلمة الحق، وعدم ترويع الآمنين، ونبذ الضرر و الضرار، و غيرها من القيم السامية.

هذه الازدواجية المتذبذبة تولدت في نفوس بعض شبابنا لأن الغرب اعتنق ذات القيم واتخذها ركائز وأعمدة بنى عليها دوَلَه؛ و ربَّى عليها شعوبَه؛ ونادى بها قِيَماً إنسانية غير قابلة للمساس، هي في الأصل قيمنا ذاتها، تغيَّرت مسمياتها فقط لتصبح: "قدسية الحياة، وحرية الأديان، والتعايش السلمي، واحترام القانون، والديمقراطية غير الممسوخة، وحرية التعبير، وبسط الأمن، والسلم الاجتماعي، وغيرها".

وبدلاً من استثمار هذا التوافق الجزئي بيننا وبين الغرب – وهو قاسم مشترك إيجابي- بدلاً من جعلها منصة انطلاق لحوار فاعل بين الحضارات، أصبح الغرب عدوَّنا الذي صنعتْه أذهاننا لنتذرع بعدائه، ونتمترس حول جاهلية عوفينا منها حين أنار الدين مغارات الجهل عبر حقب التاريخ المختلفة، فأصبحنا نعمِّم سيئاته بلا منطق، في حين لا نتورّع عن إيفاد أبنائنا للدراسة في كلياته وجامعاته، فلماذا نلغي حسناته بلا تبصّر؟! وكثير منا يتباهى بماركاته وعطوره وسياراته وطائراته بل وكل مخترعاته، ويطلق عليه أوصافاً جُزافاً؛ في حين نشدّ رحالنا إليه حين نتوق للترفيه والاستجمام والحرية!

ولماذا نبخسه أشياءه؛ ونُشيطن حضارته؛ ثم نستفيد من تقنياته؛ ونستمتع باستهلاكها شارهين، ثم نتشدق بأمجادنا الماضية؛ ونحطّ من قدر منجزاته وتقنياته؟! وفي الوقت ذاته نتمنى العيش فيه؛ بل ونسعى للحصول على جنسياته لتمدّنا بهيبة وقيمة نفتقدها في بعض بلداننا؟!

يتراءى لي أن الغرب اليوم أصبح عُقدتنا التي تذكّرنا بتراجعنا الحضاري وابتعادنا عن دفة القيادة، فقد رسخ اليوم في أذهاننا وعقلنا الجمعي أن الغرب كله هو مصدر الآثام والشرور والأطماع؛ فتبنَّى فئات منا نظرية المؤامرة في كل ما هو قادم من الغرب حتى و إن كان علماً ينتفع به!

لقد صدق الداعية الإسلامي أحمد ديدات حين قال: "نحن لسنا متخلفين عن الغرب، نحن متخلفون عن الإسلام، وما تخلّفنا عن العالم وتأخّرنا إلا بعد تفريطنا في ديننا".

أصبح أكثرنا ينظر بريبة لكل وجود أجنبي في بلدنا، وغيرنا مدان حتى تثبت براءته، و كل ما يمثل الغرب في بلادنا إنما هو مخلب قِطٍ لتنفيذ أجندة ما؛ وعلى الرغم من منطقية بعض هذه المخاوف استناداً إلى وقائع فعلية يتم الكشف عنها أحياناً؛ إلا أن التعميم المطلق غير صواب، ويؤدي إلى التقوقع والعدائية، مما يولِّد ظهور الغلو والتكفير وغيرهما من المناهج المعوجة التي أخذت تتغلغل في اللاوعي بشدة.

فلماذا لا يكون لدينا الانفتاح اليقظ والسماحة الفطنة، نمضي في طريق النمو والتطور والازدهار في غاية التوازن، فلا تُخوِّن الآخر استباقياً، ونحافظ على سلامة أمننا وشعبنا وعقيدتنا؟!

فليس الغربُ شراً محضاً، ولا هو خير صافٍ بلا أغراض، وهذا طبيعي لأنه يواجه مستجدات الواقع المضطرب أيضاً.

لذلك وإدراكاً منا لخطورة هذا البُعد الثقافي الدخيل، وإيماناً بتأثيره الفاعل في تقريب أفكار الشعوب، علينا أن نعزز قيم التشابه بيننا وبين شعوب الأرض قاطبة، ونحترام قيم الاختلاف ونرسخ لغة الحوار البنَّاء عبر مد جسور التواصل بين الأمم والحضارات كافة.

صحيح أن الغرب في الماضي كان جلادنا ومستعمرنا والطاغية الذي أنهك الموارد وسفك الدماء وأن التاريخ يحفظ له سجلاً غير مشرِّف معنا، فقد سعى الغرب ولو ظاهرياً في العقود الفائتة للتطهر منه، إلا أنه أدرك الآن وبما لا يدع مجالاً للشك أن الحرية لكل شعوب الأرض مقرونة بالحياة، وأن الشعب المسلم يستعذب الموت في سبيل العيش بكرامة وعزة لا تشوبها شائبة خنوعٍ أو قهر.

وصحيح أيضاً أن الغرب لطالما وقف نصيراً لإسرائيل وداعماً لها بالعدة والعتاد ولطالما كالَ بمكياليْن في كل ما يتعلق بالشأن الإسلامي، ولكن هذه النقطة بالذات تدِينُنا قبل أن تدينَه، فمعلوم أن أساس التحالفات الدولية مبني على المصالح أولاً وأخيراً، وفي زمنٍ تسعى فيه الأمم للتراصّ والتكتّل حتى ولو كان ما يربط بينها هو المناخ فقط؛ فإننا نسعى للأسف إلى التشرذم والتشتت رغم كثرة الروابط والمتشابهات بيننا والتي قد تصل إلى حد التطابق التام، فلو كنا نسيجاً واحداً ويداً واحدة، لاحترمَنا العالم

بأسره، ولو كان قمحنا من فأسنا وقرارنا من رأسنا لغيّرنا مجرى الأحداث سياسياً واقتصادياً، فواجبنا إذن ترميم بيتنا من الداخل قبل المطالبة بمكان وثير لنا في البيت الدولي..!

هل في الإسلام حكومة دينية؟

فكرة (فصل الدين عن الدولة) فكرة غربيَّة وُجِدَت كحلٍّ لتخلُّف أوربا في عصورها الوسطى المظلمة؛ نتيجةَ استبداد الحكم الكنَسِيِّ المحرَّف في أوربا آنذاك، وهو استبداد لا يُقِرُّه الإسلام بجميع أنواعه وأشكاله.

وقد ورد الرد على هذه الفكرة في القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرنًا، في أوجز عبارة، جمعت الحُكْم والحجة المنطقية معًا لمن يفقه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾[الأعراف: 54]، فسبحان الله الذي خلق وشرَّع!

نعم؛ له الخلق والأمر، مصدر السيادة والقانون هو الله تبارك وتعالى وحده، وليس للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لخلفائه الراشدين ولا للرؤساء السياسيين أيُّ سلطة إلا بالتفويض، ذلك لأن الشريعة مفروضة على الجميع؛ وكل مؤمن هو خليفة الله في الأرض، وبِناءً عليه يصير الهدف الأساسي الذي ينشده المؤمن هو البحث عن التقرُّب إلى الله، باحترام الوحيِ والتقيُّد به، ويجب على المسلمين أن تتضافر جهودُهم داخل نطاق الجماعة، من أجلِ بلوغ الغايات التي يفرضها عليهم القرآن الكريم بلا تمييز، ويضمن احترام هذا القانون حقوق جميع أعضاء الجماعة.

فأولوا الأمر ليس لهم سلطة مطلقة، وإنما هم في خِدمة الجماعة لتنفيذ أحكام الشريعة، وليس في وُسْعهم أن يدَّعوا أيةَ عصمة في تفسير التوجيهات الإلهية؛ لأن هذه العصمةَ تكمُنُ في إجماع الأمة.

وحين نمعن النظر في القرآن الكريم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم لا نجد أنهما قد حدَّدَا شكلاً خاصاً بالحكومة، فالمسلمون لهم حرية اختيار الهيكل الحكومي الذي يريدونه بشرط أن يسمح بتطبيق الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، وهذه الحكومة لا يمكن أن يقال لها (الحكومة الدينية) حيث إن صلاحيتَها الوحيدة هي تطبيق أحكام الشريعة الموحى بها، وهو قانون أساسي ثابت لا يتغير، والقرآن الكريم يأمر بالشورى بين رئيس الجماعة وأعضائها في النوازل والمستحدثات.

فخليفة المسلمين ليس رئيساً دينياً، ولم يحدث- لا نظرياً ولا عملياً - أن حكم المجتمع المسلم طبقة كهنوتية؛ كما حدث في الغرب؛ وذلك لسبب واضح؛ وهو أنه لا أهلية لأي إنسان أو هيئة بتعديل الحكم الشرعي الموحى به أو إصلاحها أو إكمالها، إذ جاء الإسلام ليحرر الأفراد من الطغيان والتعصب في الحكومات.

وقد يحتج بعضهم على الدولة الدينية بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:44].

ونجيب بأن الآية الكريمة، قد وردت في الحكم بما أنزل الله في التوراة، كما هو ظاهر من مطلع الآية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة:44].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:47] الآية الكريمة، فد وردت في حكم أهل الأنجيل.

إن روح القرآن الكريم يوفر ضمانات مطلقة لحماية حقوق الفرد حينما يعلن ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[الشورى:40] ويوصي بمعاقبة الظالمين والحق في مقاومتهم، فمثلاً المؤمن له كامل الحق في معارضة حكومته وإقالتها إذا اقتضى الأمر، وقد أعلنها الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه صراحةً في قوله :

(أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسوله، فإن عصيتُه فلا طاعةَ لي عليكم)؛ لأن السيادة لله وحده، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق) [رواه أحمد].

ومن هنا نجد أن حجر الزاوية في النظام الإسلامي هو العدل، لأن الإسلام نظام حياة، ولا حكومة دينية في الإسلام، وللمسلمين كامل الحرية في اختيار حكومتهم بشرط أن يسمح لهم بتطبيق الأحكام الشرعية، فمصدر القانون الإسلامي هو الله وحده الذي خلق الخلق، وهو وحده يعلم ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الملك:14].

من أنفس ما قرأت.. عبد الحق حرٌّ شريف!

من أنفس ما قرأت وأحببت أن تطلعوا عليه، هذه الحادثة التي وقعت لعالم جليل مع مجهول غريب لا يعرف من أين هو؟ فإن ركوب الباطل بعد معرفة الحق قمة العبودية، بينما عبد الحق حرٌّ شريف، وما أروع علماءنا الذين ضربوا لنا أروع الأمثلة على ذلك، تابعوا معي ما قاله القاضي ابن العربي في كتابه: " أحكام القرآن "(الجزء الأول: 182-183):

"أخبرني محمّد بن قاسم العثماني غير مرّة ، قال :وصلتُ الفُسطاطَ مرةً، فجئتُ مجلس الشيخ أبي الفضل الجوهريّ، وحضَرتُ كلامه على النّاس، فكان ممّا قال في أول مجلس جلستُ إليه:" إنّ النبيّ – صلّى الله عليه وسلم- طلّق وظاهر وآلى!

فلما خرج تَبِعْتُه حتى بلغتُ معه إلى منزله في جماعة، فجلس معنا في الدِّهْلِيز وعرّفهم أمري ؛فإنه رأى إشارة الغُربة، ولم يَعرف الشخص قبل ذلك في الواردين عليه، فلما انفضّ عنه أكثرهم ، قال لي: أراك غريباً، هل لك من كلام؟ قلت : نعم ، قال لجلسائه : أفرجوا له عن كلامه.

فقاموا وبقيت وحدي معه، فقلت له: حضرتُ المجلس اليوم متبرّكاً بك، وسمعتك تقول : آلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلم- وصدقتَ، وطلّق رسول الله –صلى الله عليه وسلم–وصدقتَ، وقلتَ: وظاهر رسول الله –صلى الله عليه وسلم- وهذا لم يكن ! ولا يصح أن يكون ؛ لأنّ الظّهار منكر من القول وزور، وذلك لا يجوز أن يقع من النّبي –صلى الله عليه وسلم!

فضمّني إلى نفسه وقَبَلَ رأسي وقال لي:أنا تائبٌ من ذلك جزآك الله عني من معلمٍ خيراً.

ثم انقلبت عنه، وبكّرت إلى مجلسه في اليوم الثاني، فألفيته قد سبقني إلى الجامع، وجلس على المنبر، فلما دخلتُ من باب الجامع ورآني ؛ نادى بأعلى صوته: مرحباً بمعلمي؛ أفسحوا لمعلمي!!

فتطاولت الأعناق إليَّ ، وحدقت الأبصار نحوي، وتبادر الناسُ إليَّ يرفعونني على الأيدي، ويتدافعونني حتى بلغت المنبر، وأنا لعظيم الحياء لا أعرف في أي بقعة أنا من الأرض، والجامع غاصٌ بأهله، وأسال الحياء بدني عرقاً، وأقبل الشيخ على الخلق فقال لهم: أنا معلمكم وهذا معلمي !

لما كان بالأمس قلت لكم: آلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وطلّق وظاهر؛ فما أحدٌ منكم فَقُهَ عني ولا ردَّ عليَّ، فاتبعني إلى منزلي وقال لي: كذا وكذا ،-وأعاد ما جرى بيني وبينه، وأنا تائب عن قولي بالأمس، راجعٌ عنه إلى الحقّ، فمن سمعه ممن حضر فلا يعوّل عليه، ومن غاب فليبلغه من حضر، فجزاه الله خيراً ، وجعل يحفل في الدّعاء والخلق يؤَمّنون".

قال ابن العربي معلّقاً: " فانظروا رحمكم الله إلى هذا الدّين المتين، والاعتراف بالعلم لأهله على رؤوس الملأ، من رجلٍ ظهرت رياسته، واشتهرت نفاسته، لغريبٍ مجهول العين لا يعرف مَنْ؟ ولا مِنْ أين؟ فاقتدوا به ترشدوا".

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .. آمين يا رب.

الفصل الثالث

من شماريخ التاريخ

أصحابي .. أمَنَة لأمَّتِي

الواجب على المسلم أن يحب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجلهم ويترضى عنهم، وينزلهم المنزلة اللائقة بهم، ولا يجوز أن يحمله خطأ بعضهم على بغضه، فان المقرر عند أهل العلم أن البغض للمؤمن العاصي يكون بقدر معصيته، كما يجب حبه بقدر طاعته، والصحب لو حصلت منهم أخطاء فعلا فإنها مغمورة في بحار حسناتهم العظيمة.

وهذا هو الذي سلكه الرسول –صلى الله عليه وسلم مع حاطب رضي الله عنه–، حيث قال –صلى الله عليه وسلم– لعمر عند ما استأذن في قتل حاطب: "أليس من أهل بدر ؟ فقال: لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة–أو: غفرت لكم".

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم في حياته يقبل أن يؤذى أو يلعن أو يشنع على من عصى في عصره. فعن عمر بن الخطاب أن رجلاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب[أي الخمر]، فأتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العَنْه؛ ما أكثر ما يؤتى به!. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تلعنوه، فو الله ما علمتُ إلا إنه يحب الله ورسوله". [رواه البخاري].

وقد عَدَّ زين العابدين بن الحسين من يسب الصحابة وينتقصهم من المستهزئين بالدين وطردهم من مجلسه.

فقد قال الزبير بن بكار ثنا عبد الله بن إبراهيم بن قدامة اللخمي عن أبيه عن جده عن محمد بن علي عن أبيه قال : "جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما، ثم ابتدأوا في عثمان فقال لهم أخبروني أأنتم من المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله؟ قالوا لا، قال فأنتم من الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم؟ قالوا: لا، فقال لهم أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ

يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾الآية فقوموا عني لا بارك الله فيكم ولا قرب دوركم أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله".

إن علينا أن نسعى في توبة المنحرفين من المعاصرين وإنابتهم إلى الله تعالى، والنهي عما قد يحصل في عصرنا من المناكر، ونترك أمر الصحابة فهم قد رضي الله عنهم وزكاهم وعدلهم في كتابه، وأثنى عليهم ومدحهم في غير ما آية، وأي تزكية بعد تزكية الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟!

كما عدلهم رسوله صلى الله عليه وسلم وبيَّن منزلتهم، ودعا إلى حفظ حقهم وإكرامهم، وعدم إيذائهم بقول أو فعل، فقال صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ."

وقال: "لا تسبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه". [أخرجاه في الصحيحين].

وقال أيضاً: "الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه". [رواه الترمذي].

و في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

وقال أيضاً: "النجوم أمنةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعدُ، وأنا أمنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون". [رواه مسلم].

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: " إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه". اهـ.

وأسند ابن عبد البر في (جامع بيان العلم) عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم". اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير:

"والصحابة كلهم عدول عند أهل السنة والجماعة لما أثنى الله عليهم في كتابه العزيز، وبما نطقت به السنة النبوية في المدح لهم في جميع أخلاقهم وأفعالهم، وما بذلوه من الأموال والأرواح بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم رغبة فيما عند الله من الثواب الجزيل، والجزاء الجميل". اهـ.

أما معاوية رضي الله عنه فصحابي جليل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن كُتَّاب الوحي والمجاهدين في سبيل الله، وفضائله كثيرة فقد روى أحمد عن العرباض بن سارية السلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم علِّم معاوية الكتاب والحساب وقِهِ العذاب".

وعن عمر رضي الله عنه قال: "لما عزل عمير بن سعد عن الشام وولى معاوية قال الناس: عزل عميرًا وولى معاوية. فقال عمر: لا تذكروا معاوية إلا بخير، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم اهد به". [رواه الترمذي].

وعن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر معاوية فقال: "اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهد به". [رواه الطبراني].

وأما عمرو بن العاص رضي الله عنه فهو من المهاجرين وقد ثبت فيه الحديث : "عمرو بن العاص من صالحي قريش". [أخرجه الترمذي].

وقد قال الذهبي في ترجمته في سير أعلام النبلاء (55/3): "داهية قريش ورجل العالم، ومن يضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم، هاجر إلى رسول الله مسلما في أوائل سنة ثمان، مرافقا لخالد بن الوليد

وحاجب الكعبة عثمان بن طلحة، ففرح النبي صلى الله عليه وسلم بقدومهم وإسلامهم، وأمر عَمْراً على بعض الجيش، وجهزه للغزو...".

وأجمع المسلمون من أهل السنة والجماعة على عدالتهم وفضلهم وشرفهم، وإليك طرفًا من أقوال أئمة الإسلام وجهابذة النقاد فيهم:

قال ابن عبد البر رحمه الله –كما في الاستيعاب:

"قد كفينا البحث عن أحوالهم لإجماع أهل الحق من المسلمين وهم أهل السنة والجماعة على أنهم كلهم عدول".

وقال ابن الصلاح في مقدمته:

"ثم إن الأمة مجمعة على تعديل جميع الصحابة، ومن لابس الفتنة منهم فكذلك، بإجماع العلماء الذين يعتد بهم في الإجماع، إحسانًا للظنِّ بهم، ونظرًا إلى ما تمهد لهم من المآثر، وكأن الله سبحانه وتعالى أتاح الإجماع على ذلك لكونهم نقلة الشريعة". انتهى.

يقول الطحاوي رحمه الله في عقيدته المشهورة:

"ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان". اهـ.

وقال الإمام الذهبي:

"فأما الصحابة رضي الله عنهم فبساطهم مطوي، وإن جرى ما جرى...، إذ على عدالتهم وقبول ما نقلوه العمل، وبه ندين الله تعالى.

ولقد عد العلماء قديماً تنقص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة على أهل البدع والزندقة الذين يريدون إبطال الشريعة بجرح رواتها.

قال أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة.!

وعن الإمام أحمد أنه قال: إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوء . فاتهمه على الإسلام.

وقال الإمام البربهاري: واعلم أن من تناول أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه إنما أراد محمداً، وقد آذاه في قبره". اهـ.

وذكر ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله في الرسالة في كلامه عن العقيدة :

"أنه لا يذكر أحد من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يتلمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب".

(أميتوا الباطل بالسكوت عنه) .. عـبــارة فـيـها نظر ..!

انتشرت هذه العبارة بين الناس في الفترة الأخيرة كثيراً؛ وخاصة عبر وسائل التواصل الاجتماعي المعاصر، ولكنني أرى حول هذه العبارة ملاحظات كثيرة، فحول: "إماتة الباطل بهجره أو دفنه وعدم ذكره أو السكوت عنه" تنبيهات ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار:

أولاً: مخالفة هذه الجملة المستلة من سياقها لبعض المفاهيم في الآيات القرآنية الكريمة مثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [سورة البقرة: 159].

وقول الله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المائدة: 78].

ثانياً: ذكر الله في القرآن الكريم بعض مقولات أهل الباطل – مع شدة قبحها – للرد عليها وتفنيدها، كقول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[1] وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[2] وقول النصارى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[3] وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[4] وغيرها من الأباطيل، وهي باقية في كتاب الله ويتلوها المسلمون ضمن سياقها التي وردت فيه إلى يوم القيامة، بل ويؤجرون على تلاوتها.

ثالثاً: مخالفتها لبعض الأحاديث الثابتة الصحيحة كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

والنبي صلى الله عليه وسلم قدوتنا وأسوتنا لم يسكت على باطل طيلة حياته، بل لما كسفت الشمس في يوم وفاة ابنه، وأشاع الناس بأن الشمس كسفت لموت ابنه ابراهيم؛ لم يتوانَ أن جمع الناس، وصعد المنبر وأنكر هذا الباطل على رؤوس الأشهاد.

1- المائدة:64.

2- آل عمران:181.

3- المائدة:17.

4- المائدة:73.

ففي الصحيحين وغيرهما عن جابر رضي الله عنه قال: كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فادعوا الله وصلوا حتى ينجلي..).

رابعاً: نسبة هذه الجملة للفاروق رضي الله عنه أنه قال بحسب رواية أبي نعيم في الحلية: (أميتوا الباطل بالسكوت عنه) أو نحو ذلك، واللفظ كما ورد عن الإمام أبي نعيم رحمه الله في حلية الأولياء : حدثَنَا الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ لِله عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ، رَغِبُوا فَرَغِبُوا، وَرَهِبُوا فَرَهِبُوا، خَافُوا فَلَا يَأْمَنُونَ، أَبْصَرُوا مِنَ الْيَقِينِ مَا لَمْ يَعَاينُوا فَخَلَطُوهُ بِمَا لَمْ يُزَايِلُوهُ، أَخْلَصَهُمُ الْخَوْفُ فَكَانُوا يَهْجُرُونَ مَا يَنْقَطِعُ عَنْهُمْ لِمَا يَبْقَى لَهُمُ، الْحَيَاةُ عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ وَالْمَوْتُ لَهُمْ كَرَامَةٌ".

وهذا الأثر فيه علل:

الأولى: الحكم بن هشام وثقه جمع و قال بن أبى حاتم لا يحتج به

الثانية: عبد الملك بن عمير هو اللخمي الكوفي. حديثه عند الجماعة ولكن الجمهور على أنه ساء حفظه على كبر. منهم الأمام أحمد وبن معين، فقال أحمد بن حنبل: مضطرب الحديث وقال ابن معين: مختلط.

الثالثة: مخالفته لما عرف عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فإنه لم يكن ليسكت عن باطل أبداً، وما عرفت الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكماً أعدل منه.

خامساً: أخرج الأثر الإمام أبو يوسف رحمه الله في كتابه الخراج أيضاً فقال: وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِنَا، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مُسْلِمٍ ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَطَاءٍ الْكلاعِيِّ ثم سرد الكلام وقال: خطب عمر فقال: (وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا يُمِيتُونَ الْبَاطِلَ بِهَجْرِهِ، وَيُحْيُونَ الْحَقَّ بِذِكْرِهِ).

وهذا الأثر لا يصح سنداً، للإبهام في قوله : وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِنَا، ولضعف الكلاعي.

علاوة أن سيرة عمر الفاروق بخلافه، فالباطل لم يرفع رأساً ولا ذيلاً معه، بل كان الشيطان يفر من الطريق الذي يمرُّ به سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه.

سادساً: انتهز أهل الباطل هذه العبارة واستخدموها في غير سياقها، لإسكات المصلحين عن الإنكار عليهم، وحتى لو كانت كلمة حق فقد أرادوا بها الباطل، وللأسف رددها بعض الصالحين دون تمحيص بجهل وحسن نية، متناسين أنهم أمام عدو لئيم، لا يرقب فيهم إلاً ولا ذمة.

سابعاً: مما ينبغي التنبيه عليه التفريق بين الرد على الباطل المستتر غير المنتشر والباطل المنتشر، فالباطل المستتر قد يتعامل معه بدفنه وعدم نشره ليموت ذكره وذكر أهله، أما وقد انتشر الباطل وشاع فلا يجوز السكوت عنه لئلا يفسد عقول شباب الأمة.

ثامناً: كذلك يجب التفريق بين الرد على الكلام الباطل؛ وبين الأشخاص الذين نشروه، فحينما نرد على الشبهات والأباطيل يكون ردنا عموماً دون ترويج وإشهار لأصحابها الموتورين الذين ربما فرحوا بذكر أسمائهم، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ما بال أقوام يفعلوا كذا وكذا) ولا يسمي الشخص، وفي هذا مصلحة للشخص نفسه؛ لأنه داخل في الخطاب وهو يعرف أنه حصل منه هذا، لكن إذا اقتضى الحال أو المصلحة لذكر الأسماء فلا حرج، فقد ذكر الله تعالى في كتابه أسماء بعض أهل الباطل من الطواغيت كفرعون وهامان وغيرهما.

وأخيراً: هذه العبارة المنسوبة للفاروق عمر رضي الله عنه لا تصلح منهجاً عاماً ولا قاعدة مضطردة، فهي رغم عدم صحتها وعلل إسنادها حمالة أوجه، ولا ننسى أن الجملة جزء من خطبة، استلها بعضهم في غير سياقها العام، فلنكن على حذر من نقلها في غير موضعها المناسب.

بيان في الرد على بهتان

يزعم بعض أعداء الإسلام أن الرسول صلى الله عليه وسلم قام بشنِّ العديد من الحروب لإجبار غير المسلمين على الدخول في الإسلام، وأن الذين اعتنقوا الإسلام دخلوا فيه بالإكراه والقهر لا عن اقتناع.

وزعَموا أن السيرة النبوية شاهدة على انتشار الإسلام بحد السيف، وأن الغزوات التي غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لها هدف إلا إجبار الناس على الدخول في الإسلام عنوةً.

ويمكن الرد على هذه الفرية من عشرة وجوه:

أولاً: لقد مكَث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو بالحُجَّة والموعظة الحسَنة بلا قتال أو إراقة نقطة دم.

ثانيًا: دخل الإسلام إلى أهل يثرب – المدينة المنورة – بلا أي قتال، فقد اقتنَع سادتهم بالإسلام حين عرَضه عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فبايَعوا بيعتَي العقبة الأولى والثانية.

ثالثًا: إن الحروب والغزوات الإسلامية في العصر النبوي غالبها لم يكن بمُبادَرة من المسلمين؛ فقد غُزي المسلمون مثلاً في بدر وأُحُد والأحزاب، وأما فتح مكة ومؤتة وتبوك وغزوات اليهود، فكانت تأديبًا لمن خانوا العقود؛ وخالفوا المواثيق والعهود.

رابعًا: كان المسلمون يَدخُلون في الغالب في معاركَ غير متكافئة من حيث العدد والعدة؛ ففي غزوة مؤتة على سبيل المثال، كان عدد جنود المسلمين ثلاثة آلاف تقريباً، في حين كان عدد جيش الكفار مائتي ألف مقاتل، ناهيك عن التفوق في العدَّة والآلة الحربية.

خامسًا: إن العقائد لا تستقرُّ في النفوس تحت وطأة السيف والقهر على الإطلاق؛ وإنما تستقر بالإقناع وبالحجة الواضحة، ولو كانت الشعوب قد دخلت في الإسلام مُجبَرةً، فسرعان ما كانت تمرَّدت عليه ولفظته، ولكن الواقع يشهد أن الشعوب الإسلامية هي أكثر الشعوب تمسُّكًا بدينها رغم ما تعانيه من اضطهادات وحروب في كثير من أنحاء العالم إلى يومنا هذا.

سادسًا: من المعلوم أن الكثافة الإسلامية في جنوب شرق آسيا، في بلاد لم تطأْها قدم مجاهد مسلم فاتح كالفلبين وإندونيسيا، فهناك مئات الملايين أسلموا، ويُشكِّلون غالبية المسلمين في عصرنا الحاضر.

سابعًا: يثبت التاريخ أن بعض الجيوش التي حاربَت المسلمين وانتصرَت عليهم – كالتتار مثلاً – قد أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجًا، في سابقةٍ لم يَعرِف لها التاريخ مثيلاً، فهل يدخل المنتصر في دين المهزوم؟!

ثامنًا: في كل يوم تدخُل جموع غفيرة إلى الإسلام في بلاد غير إسلامية؛ حتى ثبَت بالإحصاءات الرسمية (غيرِ إسلامية) أن الإسلام الآن هو أسرع الأديان انتشارًا في العالم كله وبلا حروب!

تاسعاً: من نصوص الشرع ما يشهد على عدم الإكراه والإجبار في الدين؛ كقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

قال السعدي في تفسير هذه الآية :

"هذا بيان لكَمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينِه، واتِّضاح آياته، وكونه هو دين العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة، ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق والرشد؛ فلكماله وقبول الفِطَر له لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه إنما يقع على ما تَنفِر عنه القلوب ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمَن جاءه هذا الدِّين وردَّه ولم يقبله، فإنه لعناده؛ فإنه قد تبيَّن الرشد من الغي، فلم يبقَ لأحد عذر ولا حجة إذا رده ولم يقبله."

عاشراً: نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم هو نبي الرحمة والرأفة؛ كما قال الله عز وجل : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

عالمية الإسلام .. وعولمة الغرب!

إن الإسلام منذ أيامه الأولى كان واضح المعالم بأنه دين عالمي غايته تقديم رسالة الحضارة الإسلامية بوصفها منهجاً روحياً وخلقياً ومادياً، لا يتنافى فيه الدنيوي والأخروي.

ولقد كان واضحاً كل الوضوح في لغة القرآن المكي عالمية الدعوة الإسلامية، وإنسانية هذا الدين الذي يخاطب جنس الإنسان، بغض الطرف عن وطنه وقومه؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[يوسف: 104].

بل إن أول آية في آيات المصحف لتؤكد تلك العالمية، وأن الله تعالى رب لكل الناس، وليس رباً للعرب أو المسلمين فقط ،قال الله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة:2].

والذي أنزل القرآن هو رب العالمين قد أنزله هداية ونوراً لكل العالمين، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:1].

ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم جاء رحمة ونوراً للعالمين أيضاً، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107].

والكعبة المشرفة كذلك هي قبلة للعالمين، وبركة وهداية لكل الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96].

ومن عالمية هذا الدين وانتشاره حتى يعم الأرض كلها؛ بشارته صلى الله عليه وسلم وتبشيره بانتشار الإسلام وفتحه للبلاد والعباد، فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ:

(لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ، إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلاً يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ) [رواه أحمد].

وخلال الحوار الذي دار في بيت أبي طالب بين كبار المشركين، وبين النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: (كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب؛ وتدين لكم بها العجم) [رواه مسلم] أي: كلمة: لا إله إلا الله، ولله درُّ من قال:

أخي المسلم في كل مكان وبلد أنت مني وأنا منك كروح في جسد

وحدة قد شادها الله أضاءت للأبد وتسامت بشعار قل هو الله أحد

وفي مطلع السنة السابعة للهجرة باشر النبي – صلى الله عليه وسلم – عمله في المجال العالمي حيث أرسل رسله يحملون كتبه إلى ملوك وأمراء عصره يدعوهم إلى الإسلام.

ولم يلتحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى حتى كان العرب جميعاً قد دانوا بالإسلام، ووضعت الدعوة الإسلامية خطوات ثابتة ومدروسة في طريق التبليغ العالمي.

وقد ألقيت هذه المهمة الثقيلة على عاتق الخلفاء الراشدين الذين باشروا الفتوحات الإسلامية لإنقاذ الشعوب من الاستبداد السياسي، والاستغلال المالي، والتفكك الاجتماعي، والفساد الأخلاقي.

إن الإسلام دين عالمي؛ وللعالمية الإسلامية خصائص منها أنها:

-تحمل ميزاناً دقيقاً للحقوق والواجبات حسب الشريعة الإسلامية.

-تحرص على بناء مجتمع العدل والقوة.

-تنطلق من مبدأ المساواة بين البشر دون اعتبار للثروة والجاه أو اللون أو العرق.

-تتخذ الشورى أساساً للنظام السياسي.

-تربي الناس على الإبداع والإتقان من خلال دعوتها إلى العمران.

-تجعل العلم فريضة على الجميع لتفجير الطاقات الإنسانية لمواصلة التقدم والرقي.

وهكذا انتشرت العالمية الإسلامية من منطلقات فكرية وعملية قوية؛ مما جعلها تلقى القبول لدى جميع الناس في البلدان المفتوحة"[1].

1- العولمة بين منظورين، د. محمد أمحزون، بحث منشور في مجلة البيان السعودية، ملف العولمة، آب 2009م: 38.

وفي ظل الدولة الأموية والعباسية، قدمت الحضارة الإسلامية نموذجاً من العالمية يتسم بالتأثير على أوروبا المسيحية عبر معابر الحضارة في الأندلس وصقلية ودمشق وفاس، وغيرها من الحواضر الإسلامية تأثيراً إيجابياً، إذ لم يحتكر المسلمون المنهج التجريبي الذي اكتشفوه، بل تركوا المجال مفتوحاً أمام البعثات الطلابية التي كانت تأتي من أوروبا إلى الحواضر الإسلامية لتستفيد من الاكتشافات الإسلامية في مختلف فروع العلوم: في الكيمياء، والطب، والهندسة والرياضيات والفلك والزراعة وعلم الاجتماع وغير ذلك، كما ساهمت في ذلك حركة الترجمة عن العربية – التي كانت لغة العصر- إلى اللغات الأوروبية.

ولقد مثل الإسلام فتحاً من حيث التعامل مع غير المسلم؛ إذ كان المخالف المعارض، في أوربا يقتل أو يطرد؛ بينما جاء الإسلام ليقبل الآخر المختلف معه في العقيدة أو الدين ورتَّب له أوضاعاً قانونية، وحقوقية تحفظ له وجوده، وتحفظ له ممارسة عقيدته، وقد ازدهرت حياتهم في ظل الإسلام، وعلى سبيل المثال فإن العثمانيين اتجهوا نحو التسامح مع الأقليات الدينية والعرقية، وتناقل المسيحيون عبارة (لوكس فاتوراس) الزعيم الديني البيزنطي في القسطنطينية حينما قال: (إنه خير لنا أن ترى العمامة في مدينتنا القسطنطينية من أن ترى فيها تاج البابوية)[1]!

كما كانت الدولة العثمانية ملاذاً للهاربين من الاضطهاد الديني في أسبانيا وأوروبا، يقول المؤرخ البريطاني (توينبي) في هذا الشأن: " إنها لأول مرة في التاريخ استطاعت أن تتوحد الأرثوذكسية في ظل هذه الدولة التي كانت استراتيجيتها: (وحِّد واحْكم) بينما كانت الاستراتيجية الاستعمارية تتبنى مبدأ: (فرِّق تَسُد)![2]

وعندما بدأ التخلف يطرق أبواب العالم الإسلامي لجملة من الظروف، وأخذت موازين القوى تميل لمصلحة الأوروبيين، بدأت أوروبا تسعى كالأفعى إلى تطويق العالم الإسلامي وإضعافه بكل الوسائل، فلم ينته القرن التاسع عشر الميلادي إلا وقد عظم شأن الاستعمار الغربي، واستفحل وسقطت أكثر البلدان الإسلامية تحت سيطرته.

أما عولمة الغرب فإنه الاستعمار ذاته، وهي العولمة السلبية؛ لأن مهمتها كانت تقتصر على استغلال الموارد الطبيعية، وتوفير المواد الخام لصناعاته، والأيدي العاملة التكميلية، وتأمين سوقٍ مفتوحة لبضائعه، والعولمة تدعم برامج التغريب التي تطمح إلى طبع البلدان في كل الميادين بطابع الحضارة الغربية، فتغلغل

1- انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، محمد حرب :71.

2- انظر: توظيف ورقة الأقليات في العالم الإسلامي (حالة تيمور الشرقية)، محمد كمال منصور:71.

التغريب في السلوك الفردي، والفنون والآداب، والمناهج والبرامج الدراسية والإعلام، والاقتصاد، والقوانين وغيرها.

وبالنظر إلى العولمة الغربية نراها تتكون من المراحل الآتية:

1- عولمة التصفية الجسدية: وهو ما فعله همج الغزاة الأوروبيين في أمريكا من تصفية جسدية لأصحاب الأرض الأصليين (الهنود الحمر).
2- عولمة الاستعباد الرقيقي: وقد كانوا يستوردون العبيد من القارة الأفريقية لمن يعتقدون في أنفسهم تمثيل النوع الأرقى (الرجل الأبيض).
3- عولمة الاستعمار الاقتصادي: وكانت تتمثل في ضرورة التوسع؛ لإيجاد مصادر للمواد الخام، والأيدي العاملة، وأسواق مفتوحة للبضائع.
4- عولمة الاستتباع الحضاري: حيث جعل المستعمرين توابع، يفضلون بأنفسهم مستعمراً على مستعمر آخر دون حسبان للمصالح.
5- عولمة التصفية الروحية: عندما يصبح التابعون يجدون في سيدهم المثال الأعلى بحيث يصبح همهم الوحيد أن يكونوا مثله؛ مع الاعتقاد بأنهم لن يصبحوا كذلك إلا بنفي كل ما يميزهم عنه، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (الانتحار الروحي) فيسخرون من لغتهم وأدبهم وتاريخهم وقيمهم ودينهم؛ أي يبيدون حضارتهم بأيديهم[1].

أما خصائصها فقد جاءت هذه العولمة لتكريس الهيمنة، واستعباد الأمم، واكتساح ثقافة الشعوب وخصوصياتها الفكرية والاجتماعية، واقتلاعها من جذورها، وفرض أنماط حضارية جديدة تخدم مصالح الغرب.

وينقسم العالم في ظل هذه العولمة إلى معسكريْن اثنين :

1- دول منتجة اقتصادياً وثقافياً وفكرياً وإعلامياً.
2- ودول أخرى مستهلكة لكل ذلك مشرعة الأبواب، عاجزة عن حفظ هويتها وخصوصيتها.

1- انظر: العولمة والكونية، أبو يعرب المرزوقي:19.

وأخيراً: لقد أدرك (ريتشارد هبوت) أن العولمة لا سيما الاقتصادية منها ما هي إلا صورة لاستعمار جديد في ثوب قانوني فيقول في كتابه (العولمة والأقلمة): "العولمة هي ما اعتدنا عليه في العالم الثالث، ولعدة قرون أن نطلق عليه الاستعمار!"[1].

1- انظر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة، محمد عمر الأشقر، دار النفائس، عمان ٢٠٠٢م: 160.

قراءة التاريخ .. لمستقبل أجمل ..!

التاريخ هو تراث الأمة وكنزها، وديوانها وذاكرتها، وهو مقياس عظمتها في بابي الحضارة والثقافة، وهو ماضيها الذي تستند إليه لحاضر أفضل ومستقبل أجمل، وهو وعاء الخبرة البشرية، ومن أحداثها تروى العبر والعظات، إذِ الأمة الإسلامية اليوم تتطلع إلى الخروج من النفق المظلم الذي وضعت نفسها فيه منذ قرابة ثلاثة قرون، ولا مخرج لها بعد التوكل على الله سبحانه سوى المراجعة الدقيقة لتاريخها.

ولكن قراءةُ التاريخ أو رواية أخباره ليست صنعةً سهلة، بل هو من أدقِّ الأعمال التي يمكن أن يقوم بها إنسان، فمن يقرأ المقطع التاريخي مقطوعاً عن سياقاته؛ كأنه ينظر إلى كسرة حجَر عبر مجهر.!

هذا الخطأ في قراءة التاريخ من أشهر الأخطاء وأخفاها، وما يقود إليه هو الولَع بالحدث إلى حدِّ الغفلة التامَّة عما يحيط به من الظروف الزمانية والمكانية والإنسانية على نحوٍ عام.

خذ مثلاً حادثةَ عزل خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقارئ هذا الحدث يقرأ فيها بكلِّ بساطة حزم أمير المؤمنين عمر وطاعة القائد خالد رضي الله عنهما، ثم يتساءل بعد ذلك: لماذا عزل عمرُ خالدًا؟

لكن الكاتب مالك بن نبي رحمه الله تعالى يقرأ فيها شيئًا آخرَ تمامًا، يجعل هذا الحدثَ على الرغم من عظَمته؛ مثالاً صغيرًا في سياق الحديث عن قضية كبرى؛ كقضية شبكة العلاقات الاجتماعيَّة في حالة (البنيان المرصوص).

وبدلاً من السؤال: لماذا عُزل خالد؟ يطرَح أسئلة أخرى مثل :

كيف تقبَّل خالدٌ هذا القرار المفاجئ بهذه المرونة النفسيَّة العالية؟ !

وكيف تقبَّل جنوده هذا القرار وقائدهم في أوْج مجدِه؟!

إنه الفرق فيمن يقرأ الإنسانَ في ضوء الحدث، ومن يقرأ الحدثَ في ضوء الإنسان؛ فالصنف الأول يرتكز في فهم نفسيات الأشخاص على استجاباتهم للأحداث، أما الصنف الثاني – ومنهم مالك بن نبي رحمه الله – فيرتكز في فَهم الكيفية التي تَجري بها الأحداث التاريخيَّة على فهمه لنفسيات الأشخاص، وهذا هو الفرق بين المؤرخين والقُصَّاص..!

إن قراءة المقطع التاريخي مقطوعاً عن سياقاته تؤدي بنا إلى نظرية طرحَها الأستاذ مالك بن نبي وتحدث عنها مرارًا، وهي نظرية الوَحدة العضويَّة للتاريخ، وبناءً عليها هاجم مالكُ بن نبي التصوير المقطعيَّ للتاريخ ضمنًا في سياقات أحاديثه.

يرى الأستاذ مالكٌ أنَّ تاريخ أيِّ أمة أو مجتمع لا يُقرأ من خلال الأحداث التي تضمَّنها؛ لأنَّ ذلك سيوقعُ القرّاء في التباساتٍ كبيرة، ولكنه يُقرأ على النحو الصائب من خلال: فَهم المجتمع وشبكة علاقاته القائمة، وتجاربه على جميع الأصعدة، وهُويته من خلال فهم شخصيته وروحه، وهذه القراءة العميقة، توصلنا إلى فهمٍ أوسعَ للتجارِب التي مر بها هذا المجتمع.

ويضرب لذلك مثلاً بالحروب الصليبية التي انطلقَت من الغرب الأوربي قبل حوالي ألف عام من الآن، وثورات عام 1848م التي شهدتها دول غرب أوربا، والتي مثلت في جزء منها صرخة في وجه الكنيسة الكاثوليكية كمؤسَّسة للدين المسيحي.

وقد يبدو هذا الدمج غريبًا بين حدَثين متناقضين في حيثياتهما تناقضًا متطرفًا، لكن هذه الغرابة تزول تمامًا حين نكتشف أن هذين الحدثين معًا ينبئان القارئ المتبصِّر للتاريخ، بالتطرف الذي يضرب بعيدًا في أعماق الشخصية الغربية؛ ففي الحدث الأول: كان التطرف دينيًّا متجهًا إلى الخارج، لكنه في الحدث الثاني: أصبح علمانيًّا متجهًا إلى الداخل.

بهذه الطريقة يجمع مالك بن نبي كقارئ بارع ومتبصر للتاريخ بين أحداثه المتناقضة؛ لينتج منها رواية تسلط الضوء على الإنسان الذي أنتج الحدث وتأثر به، محاولاً استجلاءَ دروسٍ تاريخية بارعة وعميقة، تكشف عن جانب من سنن الخالق سبحانه وتعالى في خلقه، لبناء وعي راشد بقضايا الحاضر والماضي والمستقبل.

وبعض المؤرخين يحاولون تجميل التاريخ الإسلامي، بذكر الحسنات فقط وإغفال السيئات، وصنيعهم هذا خطأ منهجي واضح، إذ التاريخ البشري مزيج بين الجميل والقبيح.

ومن ذلك الكتاب الذي صنفه أحدهم بعنوان "الحجاج بن يوسف المفترى عليه"، وهذا دفاع أعمى عن رجل ظالم ولغ في الدماء، وكان جباراً عسوفاً، يأخذ الناس بأدنى شيء، وهناك مَن بالغ في الدفاع عن

بني أمية في بعض سقطاتهم وتجاوزاتهم، نعم إن في بني أمية مزايا خصائص ونقائص؛ فدفع النقائص عنهم عمل باطل؛ كما أن غمطهم حسناتهم فعل محرَّم في شرعنا.

وهناك آخرون يرون أن التاريخ الإسلامي كله شر وفتن، وهذا غلو واضح وتزوير فاضح؛ إذ التاريخ الإسلامي هو تاريخ بشري فيه الخير والشر، فلابد عند ذكر تاريخنا من ذكر تواريخ الأمم الأخرى مقارناً بتاريخنا؛ لنعرف أن تاريخنا أفضل من تواريخ جميع الأمم بل ليس بينه وبينها أفعل تفضيل، فعلينا أن نحسِّن من وسائلنا في دراسة التاريخ وتدريسه، وفي رواية التاريخ وقراءته؛ لنستخلص منه دروساً وعبر لمستقبل أجمل!..

كيف ندرس التاريخ؟

يخطئ المستشرقون حينما يحكمون على الإسلام والتاريخ الإسلامي معتمدين على قيمهم ومقاييسهم الثقافية الخاصة، وفق مقتضيات عصرهم الذي يعيشون فيه، بدلاً من الاعتماد على المصادر التاريخية، وأعراف ومبادئ المجتمع المسلم، وبصرف النظر إلى الحقد والتعصب الأعمى لديهم، فإن سبب انحراف منهجهم هو في القياس الفاسد، حيث ينظرون إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد أشخاص لا يختلفون عن سائر الناس في المطامع والكيد السياسي، فالخلاف الذي وقع بين الصحابة لا يعدو في نظر المستشرقين أن يكون أزمة صراع على السلطة، فيعرض (لامنس) الفرنسي حادثة سقيفة بني ساعدة، وهي سابقة رائعة لتطبيق الشورى الإسلامية، حيث اقتنعت الأكثرية برأي الأقلية، لكنه ينظر إلى الحادثة بأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما تآمرا على انتزاع الخلافة والتعاقب عليها، والمشكلة في هذا الفهم السقيم أنه يقيس القضية على صور المؤامرات في البلاط الفرنسي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر"[1].

إن تفسير الحوادث والحكم عليها يعتمد على قواعد مهمة منها:

1- اعتماد المصادر الشرعية لأنها أصدق وثيقة تاريخية ووصلتنا بأوثق منهج علمي، حيث وصلنا القرآن بالتواتر الموجب للعلم القطعي، وصحيح السنة وصلنا بمنهج علمي دقيق.
2- الفهم الصحيح للإيمان ودوره في تفسير الأحداث، فهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة من أجل المبدأ الذي يوجهه الإيمان، فقد قدموا بذلك مثالاً عالياً من التضحية والإخلاص.
3- المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ منهج شامل لكل الدوافع والقيم التي تصنع التاريخ، فيأخذ في الحسبان مدى أثر العوامل المادية والنفسية المحيطة بالإنسان دون تضخيم أو تحجيم، وقبل كل هذا قَدَرُ الله جل جلاله، وهذا سرُّ المفارقة بين المنهج الإسلامي وبقية المناهج الوضعية التي تفسر التاريخ تفسيراً عرقياً أو جغرافياً أو اقتصادياً، ولم تحسب حساباً للعوامل المؤثرة في حركة التاريخ، وإنما اكتفى ربما بعامل واحد وضخَّمَه وفسَّر به تاريخ الإنسان كله.

1- منهج دراسة التاريخ الإسلامي، محمد أمحزون، القاهرة، دار السلام، ص18.

4- الكلام في الأشخاص يجب أن يكون بعلم وعدل وإنصاف، فمن المعلوم أن أحداً لا يسلم من الخطأ، فلا ينبغي إغفال المحاسن لوجود بعض المساوئ، لوجود حسد أو عداوة أو شحناء، لكن النبلاء لا يبخسون الناس حقهم ولو كان الموصوف مخالفاً لهم في الدين والاعتقاد أو المذهب، ومن العلماء الذين برزوا في هذا الشأن الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه: (سير أعلام النبلاء) حيث أنصف من ترجم لهم من الأعلام، حتى أهل الفسق والبدع، فمثلاً يقول عن الأشتر النخعي: "أحد الأشراف الأبطال المذكورين، وكان شهماً مطاعاً زعراً ألهب على عثمان قاتله، وكان ذا فصاحة وبلاغة"[1]، وزعراً: أي شرساً سيئ الخُلُق.

ويقول في ترجمة الحكم بن هشام: "وكان من جبابرة الملوك وفساقهم ومتمرديهم، وكان فارساً شجاعاً، فاتكاً ذا دهاء وعتو وظلم"[2].

وقال في ترجمة الجاحظ الأديب المعتزلي: "العلامة المتبحر ذو الفنون، وكان أحد الأذكياء، وكان ماجناً قليل الدين، وله نوادر"[3].

5- العبرة بكثرة الفضائل، فإذا كان الماء إذا بلغ القلتين لم يحمل خبثاً؛ كذلك من غلبت فضائله على هفواته اغتُفِر له ذلك، ولذلك يقول الحافظ الذهبي رحمه الله: "وإنما العبرة بكثرة المحاسن"[4]، وهذا منهج صحيح لأنه لا أحد معصوم من الخطأ إلا الأنبياء، وكل إنسان لا يسلم من السهو، والإنصاف أن يغتفر للمرء الخطأ القليل وينغمر في كثير صوابه.

6- ينبغي دراسة الظروف التي وقعت فيها أحداثه، والحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي اكتنفت تلك الحوادث، قبل الحكم على الحادثة، وقد وجدنا كيف عالج النبي صلى الله

1- سير أعلام النبلاء للذهبي: 34/4.
2- سير أعلام النبلاء للذهبي: 254/8.
3- سير أعلام النبلاء للذهبي: 527/11.
4- سير أعلام النبلاء للذهبي: 46/20.

عليه وسلم صنيع حاطب بن أبي بلتعة حين أرسل كتاباً مع امرأة من المشركين ليخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة، كانت المعالجة على ثلاثة مراحل:

الأولى: مرحلة التثبت من وقوع الخطأ، وكان عن طريق أوثق المصادر ألا وهو الوحي.

الثانية: مرحلة تبيين الأسباب التي دفعت إلى ارتكاب الخطأ، حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (ما حملك على ما صنعتَ؟) فإذا كان هناك عذر شرعي انتهت القضية، وإلا يُصار إلى المرحلة الثالثة.

الثالثة: يتم جمع الحسنات والأعمال الخيِّرة لمرتكب الخطأ، وحشدها إلى جانب خطئه، فقد ينغمر هذا الخطأ في بحر حسناته، ولذلك لما استأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتل حاطب قال له النبي صلى الله عليه وسلم:" أليس من أهل بدر؟" ثم قال: "لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم" [رواه البخاري].

على هذه الشاكلة نتمكن من ربط المسببات بأسبابها، والنتائج بمقدماتها، وحينها يمكننا الاستفادة من عِبر ودروس الماضي، وتقويم الحاضر في ضوئها، مع استشراف المستقبل، حتى نربي الناشئة والطلبة على التفكير السنني السليم ليحلّ محل الفوضى الفكرية التي تعشش في أذهان كثير منهم.

لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف..!

لا بد في البداية من وقفة سريعة حول الفرق بين الاختلاف والخلاف، فالاختلاف هو التباين في الرأي والمغايرة في الطرح وقد ورد فعل الاختلاف كثيراً في القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾[مريم: 37].

وقال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113].

وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: 213].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ... ﴾بالشورى: 10].

أما الخلاف فهو مصدر من خالف إذا عارضه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: 88].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النور:63].

وجاء بصيغة المصدر قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 76].

وقال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124].

والاختلاف قد يوحي بشيء من التكامل والتناغم كما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: 28].

وأما الخلاف فإنه لا يوحي بذلك وينصب الاختلاف غالباً على الرأي اختلف فلان مع فلان في كذا والخلاف ينصب على الشخص.

ثم إن الاختلاف لا يدل على القطيعة بل قد يدل على بداية الحوار فإن عبد الله بن مسعود اختلف مع أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنهم جميعاً في مسألة إتمام الصلاة في سفر الحج ولكنه لم يخالف بل أتم معه وقال: الخلاف شر..!

كلنا يعلم أن توحيد الصف قوة في أي ميدان كان؛ سواء في الدعوة أو في الجهاد أو في أي مشروع بناء، والتقريب بين الأفكار والآراء واجب؛ لأنه لا سبيل إلى إلغاء الآخر ولا جدوى منه؛ فليس لأحد أن يحجر على عقول دعاها الله إلى النظر، أو يقصر البشر على إحدى طرائق الفهم أو وسائل العلم.

والتقريب الذي ندعوا إليه إنما يعني الحوار المتواصل، والتعاون الوثيق، والاحترام المتبادل الذي يعبر عن الأخوة الإسلامية والوحدة الحقيقية بين أبناء الدين الواحد، ولكن ينبغي مراعاة ما يلي:

أولاً: العلم بأن سبل الحق عديدة؛ إلا أن الهدف واحد، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69].

ويقول تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 16].

ومعنى هذا أن هناك سبلاً شتى للحق كلها توصل إليه تبارك وتعالى، وهذه السبل المتعددة القويمة تمضي نحو وجهة واحدة، فكأنها طريق واحد، لذلك عبر في أكثر من آية بلفظ المفرد نحو: (سبيلي، أو سبيله، أو سبيل ربك)؛ فالحق واحد لا يتعدد، ولكن السبل تتعدد في الوصول إليه وفي إدراكه؛ فالمسلمون تختلف مواقعهم من قبلة صلاتهم، وتختلف اتجاهاتهم نحو القبلة إلا أن وجهتهم واحدة، وتلتقي جميعاً في نقطة واحدة هي الكعبة المشرفة.

ثانياً: العلم بأن الاختلاف سنة من سنن الاجتماع، وثمرة طبيعية للاجتهاد؛ لأنه اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد؛ بل هو عامل من عوامل الازدهار، ومظهر من مظاهر السعة واليسر في شريعة الله الخاتمة؛ فاختلاف العلماء في الأمة الخاتمة يقوم مقام تعدد الرسالات واختلاف التشريعات في الأمم السابقة لمناسبة أحوال أهل كل زمان ومكان.

وفي ذلك يقول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: (ما أحب أن أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – لا يختلفون؛ لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق).

وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى وغيره يكرهون قول الناس: (قد اختلف العلماء)، ويقولون: قولوا بدل ذلك: (توسع العلماء).

ثالثاً: بعضهم يرى أن الحقيقة حكر عليهم فقط، وأنهم وحدهم هم المتمسكون بالأصول الشرعية، وأن ما لديهم من آراء هي الدين الذي لا يجوز لأحد أن يفرط فيه أو يخالفه؛ ولا عجيب أن نرى أمثال هؤلاء لأمه كما قيل: (من قلَّ علمه كثر إنكاره)، ومن ثمة فمخالفهم بنظرهم إما جاهل وإما منافق يعلم الحق ويعدل عنه لدنيا يصيبها، ورحم الله الإمام أبا حامد الغزالي حيث يقول: "لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف".

رابعاً: لقد بلغ ببعض المتعصبين في فترة من الزمان أن جعلوا المسلمين يصلون أربع جماعات مختلفة في المسجد الواحد، وما زالت المحاريب الأربعة في بعض المساجد الباقية من تلك العصور تشهد على تلك الحقبة النكراء من تاريخنا؛ والتي بلغ فيها التعصب كما تروي كتب التراث إلى أن تقدم حنفي إلى مفتيه يسأله: هل يجوز لحنفي أن يتزوج من شافعية؟ !

فسكت المفتي قليلاً متفكراً ثم قال: يجوز قياساً على الزواج من الكتابية!

وقد تنبه لهذا الخطر المريع قديماً كثير من الفقهاء وحذروا منه، منهم الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في كتابه (الموافقات) حيث قال :

"إن تعويد الطالب على أن لا يطّلع إلا على مذهب واحد ربما يكسبه ذلك نفوراً وإنكاراً لكل مذهب غير مذهبه ما دام لم يطلع على أدلته؛ فيورثه ذلك حزازة في الاعتقاد في فضل أئمة أجمع الناس على فضلهم وتقدمهم في الدين، وخبرتهم بمقاصد الشارع وفهم أغراضه ...".

وفي هذا قالوا: من لم يعرف اختلاف العلماء، فليس بعالم، بل من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم تشم أنفه رائحة الفقه! وآفة كثير من الدخلاء على العلم أنهم لا يعرفون إلا رأياً واحداً ..!

خامساً: ما نشر عن أئمة الفقهاء أنهم لم يتعصبوا لآرائهم، ولم يدّعِ واحد منهم أن اجتهاده هو الصواب وحده، ولذا كان كل منهم يحترم رأي غيره؛ بل ويطبقه أحيانًا، وإن لم يكن قد قال به؛ سداً لباب الفتنة، وتأكيداً على أن كل الآراء يجب أن تلقى التقدير بدرجة سواء؛ فقد صلى الإمام الشافعي عند قبر أبي حنيفة على مذهب أبي حنيفة؛ أدباً مع روحه الشريف؛ وقرظ الشافعي الليث بن سعد، وقرظ أبو حنيفة سفيان الثوري والأوزاعي، ونظم الشافعي شعراً في تقريظ الإمام أحمد؛ بل صلى الإمام أحمد خلف بعض أئمة القدرية المغالين؛ ولم يقبل الإمام مالك من الخليفة العباسي أن يحمل الناس على كتابه (الموطأ) وبين له أن بعض الصحابة سمع ما لم يسمع الآخر، أو علم ما لم يعلمه غيره فنشر ما علم، وكل منهم على حق، ومن ثم اختلفت الوجوه في المسألة الواحدة، وكلها على الأغلب صحيحة.

وأخيراً: لا بد من إحياء روح التسامح في الأمة فتتجنب التباغض؛ وبث روح الأخوة والمودة بين المسلمين في كافة أنحاء العالم، والالتفاف حول أسس الفكر الإسلامي بوعي وإدراك يحول بينها وبين الشياطين أن تجتالها، فإذا ثابت الأمة إلى رشدها، ووضعت يدها على الجرح، وعرفت موطن الداء لابد لها بعد ذلك أن تتبين الخطوات التي يجب أن تسلكها للوصول الى الدواء وتحقيق الهدف.

عبرة من بومبي مدينة الرذيلة

مدينة (بومبي) كانت على عهد (نيرون)، الحاكم الروماني الذي قيل أنه أحرق روما لكي يُغَنِّي، فقد كان معروفاً بالمجون والعربدة وإراقة الدماء، تقع (بومبي) بالقرب من مدينة نابولي بإيطاليا، كانت مدينة عامرة أيام حكم (نيرون).

دمرت (بومبي) هي ومدينة أخرى بالقرب منها تسمى (هيركولانيوم) في يوم 24 أغسطس 79م، بعد أن ثار البركان، وظلت المدينة في طيّ النسيان حتى القرن الثامن عشر عندما اكتشفت آثار مدينة (بومبي) وعثر على مناطق بها جثث متحجرة حيث حلَّ الغبار البركاني الذي يمكن أن نعتبره إسمنتاً طبيعياً محلَّ الخلايا الحية الرطبة، وشكل أشكال البشر والحيوانات عندما قضى عليها الموت متأثرة بالهواء الكبريتي السام.

كان بالمدينة البالغ عدد سكانها 200,000 نسمة كثير منهم من الأثرياء يعيشون عيشة رغدة، وكانوا يمارسون "الزنا" والشذوذ حتى مع الحيوانات، بعلانية أمام الأطفال وفي كل مكان ويستنكرون من يتستر، وكان بالمدينة شبكة مياه داخل البيوت، وحمامات عامة، وشوارع مرصوفة بالحجارة، وكان بها ميناء بحري متطوِّر وكان بها مسارح وأسواق، وأظهرت آثارهم اهتمامهم بالفنون والنقوش، كان مجتمعهم مجتمعاً رومانياً تقليدياً بكل طبقاته بما فيهم العبيد.

قبل دمار المدينة أهمل السكان العلامات الدالة على قرب الانفجار، فلم يعبؤوا بالهزات الخفيفة وكذلك القوية ولا ببعض السحب البيضاء التي تتكوَّن فوق فوهة البركان، ولم يتعظ السكانُ من الزلزال الذي خرَّبَ مدينتهم قبل ذلك بـ 17 سنة، ولم يستجيبوا لدعوة الامبراطور الروماني (نيرون) لهم بترك المدينة؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنهم رؤوا من ذلك البركان خيراً كثيراً، فالتربة الغنية بالمعادن التي جعلت زراعتهم مثمرة مصدرها ذلك البركان، ومياه الأمطار التي كانت ترويهم وتسقي زروعهم كانت بسبب وجود ذلك الجبل البركاني.

كانت هناك عدة علامات على ثوران البركان، فقبل الانفجار بأيام حدثت عدة هزات أرضية جفَّتْ بعدها الآبار، وتوقَّفت العيون المائية، وصارت الكلاب تنبح نباحاً حزيناً فيما صمتت الطيور، لكن السكان تجاهلوها حتى أتاهم حتفهم ضحى وهم يلعبون ويلهون.

وعند منتصف النهار من يوم 24 أغسطس 79م، سمع السكان تلك الضجة الكبيرة وانفلقت الصخورُ واللهبُ والدخانُ والرمادُ والغبارُ والأتربةُ في عمود متجهةً صوْب السماءِ لتسقطَ بعدها بنِصْفِ ساعةٍ على رؤوس السكان.

تمكن بعض منهم من النجاة هرباً إلى الميناء، واختبأ آخرون في المنازل والمباني؛ فتحولوا بعدها إلى جثثٍ متحجِّرةٍ، عثر منها على حوالي 2,000 جثة؛ وكثير منهم سُحِقَ تحت الصخور المتساقطة التي أسقطت أسقف المباني.

وبعدها بساعات وصلت الحمم الملتهبة الزاحفة على الأرض إلى المدينة؛ فأنهت كل أشكال ومظاهر الحياة فيها، ودفنت المدينة تحت ثلاثة أمتار من الحمم والأتربة والغبار.

لقد أخبرنا التاريخ بهلاك هذه البلدة في غمرة مفاجئة من حمم البركان طمستها في دقائق معدودة، ولكنه لم يعرفنا شيئاً عن هذه المدينة سوى أنها بلد الفن الإيطالي، حتى إذا شاء الله أن يكشف عبرتها، هدى الله الإنسان إلى إبرازها من تحت الركام، فإذا هناك عجب...

فقد ظلت المدينة مدفونة حتى عام 1748م أي لمدة 1700 سنة تقريباً، تحت كمية كبيرة من الرماد، وظلت كذلك قروناً طويلة حتى عثر عليها أحد المهندسين خلال عمله في حفر قناة بالمنطقة، واكتشف المدينة بعد أن غطتْها البراكين، وكل شيء بقي على حالته خلال تلك المدة.

وأثناء التنقيب تم الكشف عن شعب بأكمله استحال إلى محنطات، وكانت المفاجأة أنهم ظهروا على نفس هيئاتهم وأشكالهم، بعد أن حلّ الغبار البركاني محلَّ الخلايا الحية الرطبة لتظهر على شكل جثث إسمنتية، لم يَبْلَ منها شيء، ولم يتغير وضع أحدهم، حتى الخباز لترى في يديْه لوحاً مستخرجاً به الخبز، وحتى السكارى ليمسكون بكؤوس الخمر على شفاههم، وحتى الفاسقون في أشنع حالات الفحشاء.

ويري أحد خبراء الآثار ويدعى "باولوا بيثرون" وعالم البراكين "جو سيفي" أن أهل القرية احيطوا بموجة حارة من الرماد الملتهب تصل درجة حرارتها إلى 500 سيليزية، بصورة سريعة جداً حيث غطت 7 أميال إلى الشاطئ، وتظهر الجثث على هيئاتها وقد تحجرت الأجساد كما هي، فظهر بعضها نائم وآخر جالس وآخرون يجلسون على شاطئ البحر وبكل الأوضاع بشحمهم ولحمهم.

وبعد عمل العديد من الأبحاث على 80 جثة لأهل القرية وجد العلماء أنه لا توجد جثة واحدة يظهر عليها أي علامة للتأهب لحماية نفسها أو حتى الفرار، ولم يبد أحدهم أي ردة فعل ولو بسيطة، والأرجح أنهم ماتوا بسرعة شديدة دون أي فرصة للتصرف، وكل هذا حدث في أقل من جزء من الثانية.

فأهل "بومبي" كانوا يرسمون الصور الإباحية على جدران منازلهم أمام الأطفال والنساء والكبار، حتى إن الباحثين اليوم يعتبرون أن فن الخلاعة قد بدأ في هذه المدينة.

وكان من بالِغِ عِبَرِ (بومبي) ما يراه السائحون اليوم هناك فوق مداخل بعض القصور: رسوم موازين منحوتة في الصخر في إحدى كفتي الواحد منها أكداس من الجواهر، يقابلها في الأخرى رمز اتخذوه للفاحشة، راجحاً على تلك الأكداس، إشارة إلى أن الشهوة عندهم هي غاية الحياة.

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: 11-15].

إن مَثُلاتِ القدر لم تنتَهِ من الأرض بعد، فلئن هلك بعض الأمم الظالمة بالخسف أو النسف أو الجوع أو المسخ، فإن ذلك لمستمر لم ينقطع بعد ولن ينقطع، وإلا فما هذه الزلازل تقرع البشر هنا وهناك؟ وما هذه السيول تجرف المدن والقرى في الشرق والغرب؟ وما هذه الأمراض الفتاكة تجتاح الإنسان في كل مكان؟ وقد عجز العلم عن استئصالها، فما يكاد أن يستريح من غارة حتى يستأنف التعبئة لدفع غارة أخرى!

ومن الجدير بالذكر أن هذا البركان انفجر مرة أخرى عام 1944م، حصد خلاله 19 ألف نسمة.

والآن بعد أن أصبحت مدينة (بومبي) مزاراً سياحياً للسيَّاح، إلا أن بعض المناطق بها يحظر على الأطفال والأقل من 18 عاماً دخولها؛ بسبب الرسومات الإباحية، وخاصة على بعض المباني والحمامات التي كانت تعرض المتعة لزبائنها.

ويذكر أن "بومبي" لفتت نظر العديد من الشخصيات على مدار التاريخ وخاصة من محبي الفنون، ولكن زارها الملك فرانسيس الأول من نابولي لحضور معرض بومبي في المتحف الوطني مع زوجته وابنته عام 1819م، فصدم بما رآه من رسومات، وأمر بجمع هذه المقتنيات ووضعها في غرفة مغلقة عن العامة بسبب خدشها للحياء العام، ولم تفتح هذه الغرفة إلا في عام 2006م.

تاريخ الأرمن .. وكذبة المذبحة الكبرى!

أ – نبذة تاريخية عن الأرمن:

الأرمن شعب ينتمي إلى العرق الآري، أما وجودهم في أرض أرمينيا التاريخية–الهضبة الأرمنية (أرض أرمينيا العظمى والصغرى (تقع حالياً في تركيا) ويعود إلى الألف الثالث ق.م، وتبلغ مساحتها نحو 358 ألف كيلومتر مربع، وهي تعادل نحو اثني عشر ضعف مساحة جمهورية أرمينيا الحالية، وتنبع منها عدة أنهار منها دجلة والفرات.

وفي عام 301 م، اعتنقت أرمينيا الديانة المسيحية بشكل رسمي، وبهذه الخطوة، تكون أرمينيا أول دولة اعتنقت المسيحية في العالم.

اخترع الراهب ميسروب ماشدوتس الأبجدية الأرمنية، وتمت ترجمة الإنجيل إلى الأرمنية، وبذلك بدأ العصر الذهبي للأدب الأرمني.

وفي القرن الخامس الميلادي احتل الفرس أرمينيا، وجرت معركة دينية كبيرة فقد حارب الأرمن الفرس من أجل دينهم المسيحي لأنهم رفضوا السجود للنار وقد قتل في هذه المعركة 200.000 أرمني ومثليْه من الفرس.

وهناك أسماء بارزة من الأرمن منهم: هوفانس آداميان: مخترع التلفزيون الملون، وأرتم إيفانوفيتش ميكويان الذي قام بتصميم سلسلة طائرات ميج المقاتلة الشهيرة، ولوثر جورج سمجيان مخترع حوالي 200 اختراع منها: الصراف الآلي، وإميل أرتين مؤسس علم الجبر الحديث، وريموند داماديان: مخترع آلة المسح الضوئي.

ب . أكذوبة إبادة الأرمن على أيدي العثمانيين:

في عام 1514 استولى العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول على أرمينيا بعد إلحاق الهزيمة بالفرس الصفويين، وقد أبصر الأرمن الباقون في أرمينيا، الخاضعون من جهة للأتراك ومن الجهة الأخرى للفرس، في القوة الروسية أملاً كبيراً للقوة المسيحية التي تظهر على مسرح الشرق الأدنى .

واستخدمت روسيا القيصرية الأرمن في تحقيق مطامعها السياسية، فهي التي صنعت الأرمن ومنحتهم بغير حق معظم الأراضي التي طردت المسلمين منها في خلال حروبها المستمرة لعدة قرون مع الدولة العثمانية!

فقد كانت روسيا القيصرية تمارس إرهاباً منظماً ضد رعايا الدولة العثمانية حيث كانت تبيد مدائن وقرى كاملة كانت عامرة بالمسلمين، ومن تبقى على قيد الحياة منهم كانت تجبره على النزوح القسري مستولين على كل ممتلكات هؤلاء المسلمين المظلومين الذين تعرضوا لأبشع عملية استئصال جماعي في تاريخ البشر !

وفي نفس الوقت كانت القوات الروسية بزعم الدفاع عن المسيحية! تقوم بعملية إحلال وتجديد من خلال توطين الأرمن الموالين لها في أراضي المسلمين الذي هجروها قسراً أو قتلوا إبادة!

وقد كانت روسيا القيصرية تمد المتمردين الأرمن بالمال والسلاح والعتاد بمجرد حدوث أدنى نزاع بين مسلم من رعايا الدولة العثمانية وأرمني موال لروسيا القيصرية، فلم يكن مسموحاً للمسلم أن يرد عدوان عصابات الأرمن التي تغير على القرى وتنتهك الأعراض فإذا حاول المسلم أن يدافع عن عرضه وأرضه تقوم هذه العصابات المدعومة من روسيا بإبادة القرية وحرق من فيها!

ولمن اراد مزيداً من المعلومات الموثقة فهناك بحث مستفيض حول هذه القضية كتبه الأستاذ هاني السباعي بعنوان: (إبادة الأرمن على أيدي العثمانيين .. الأكذوبة الكبرى) منشور على الشبكة العنكبوتية.

ولما هجم الجيش العثماني على المتمردين الأرمن في تاريخ 1915/4/24م وقتل منهم كثيراً؛ والأعداد متضاربة ما بين (ثلاثمئة ألف إلى المليون) تشتتوا في البلدان مثل روسيا وفرنسا وإيران والولايات المتحدة وأكرانيا وجورجيا وسوريا ولبنان وفلسطين وغيرها، ومنهم من يعيش في اسطنبول إلى اليوم، إلا أن السوريين استقبلوا الحصة الأكبر من الأرمن المهجرين فسكنوا في دمشق والرقة وحلب وكسب ودير الزور وغيرها.

وأعلنت ولاية حلب استعدادها التام لإعمار أحياء خاصة على نفقة أهاليها رافضين المساعدات الحكومية، وهذه الأحياء موجودة في حلب إلى الآن.

كما أصدرت هيئات علماء الدين الإسلامي في دمشق وحلب فتاوى بوجوب مساعدة كل من يلتجئ إلى الأرض السورية مهما كان دينه ومعتقده وتفكيره، و أوصت بضرورة تأمين كافة المستلزمات المعيشية والعمل.

الكورد.. قصة العزة الغائبة والمجد الضائع

من لم يعرف الكورد ما عرف النخوة!

الكورد ،، قصة بدأت مع طلائع الحضارة ،، إنها ببساطة قصة العزة الغائبة والمجد الضائع..!

لمن لا يعرف تاريخ الكورد وجب إنعاش ذاكرته.. الأمة الكردية هي الوحيدة التي عاقبها الغرب كيف ذلك؟!

كثيرون لا يعرفون أن اتفاقية سايكس بيكو حرمت الكورد من دولة كباقي العرقيات عقاباً لهم على دور صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى في تحرير فلسطين.

هذا الحقد التاريخي الأعمى؛ فصوله متواصلة، فقد تم السكوت عن عمد على جرائم صدام حسين وتفريغه لمدينة كركوك.

كما تم التغاضي عمداً عن ابتلاع تركيا لديار بكر الكردية.

أسباب تاريخية كثيرة دفعت الكورد لاعتناق العصبية العرقية كرد فعل طبيعي على جهالة القومية العربية، وجهالة القومية الفارسية، وجهالة القومية التركية.

بعدما كنا أيام الزمن الجميل أمة واحدة لا يسأل أحدنا أخاه عن عرقه.. ولا تعطى العطايا على أساس القوميات.

فلما دخل المستعمر الأوربي بلادنا جعل منا (أقواماً) بعدما كنا (قوماً) واحداً.

وجعل منا (أمماً) بعدما كنا أمة واحدة.

أوروبا بكل أعراقها وأطيافها تجتمع.. ونحن اليوم نتشرذم ونفترق ونتشظى.. رغم أننا أمة إسلامية واحدة..!

ما الذي حصل يا أحفاد نور الدين زنكي؟!

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله ".

لاحظوا معي جيداً أن عمر لم يقل: نحن قوم أعزنا الله بالقومية ولا بالعروبة ولا بالكوردية ولا بالتركية؛ لأنه لا أحد يختار مكان ولادته فلا تحدثني عن الوطنية إذن، ولا أحد يختار عرقه فلا تحدثني عن القومية إذن، والأكثرية لا تعني الصواب دائماً فلا تحدثني عن الديمقراطية أيضاً.

ولكن لا أحد منهم يستطيع أن يزعم أن الإسلام دين لا تستطيع أنت أن تختاره.. بغض النظر عن عرقك ومكان ولادتك ولون بشرتك.

حان الوقت للكورد أن يطالعوا ويدرسوا التاريخ الصحيح الذي يذكرهم أنهم كانوا قادة الأمة إبان الخلافة العباسية.

فمن يشوه التاريخ؟! ولماذا يشوه التاريخ؟!

لقد جعل الخونة من (فلسطين) قضية عربية، وهي مسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وليس الصراع فيها إلا على هذا الأساس، فدماء المسلمين تتكافأ وفق الشريعة الإسلامية، ولا فضل لعربي على أعجمي،، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وأخفض الشرك الشريف أبا لهب

فالقضية ليست قضية أنساب.. بل قضية عقيدة.. لا بد من الصحوة لإعادة كردستان لدورها الطليعي في النهوض بالأمة.

ماذا تعرف عن النَّوْرُوز؟

اليوم هو يوم الاعتدال الربيعي أي الحادي والعشرين من آذار/مارس في التقويم الميلادي، وهو اليوم الفاصل بين الشتاء والربيع من السنة، ويوم «النَّوْرُوزُ» أو «النَّيْرُوزُ» هو عيد رأس السنة الفارسية، حيث يُحتفل به في إيران والدول المجاورة كأفغانستان وباكستان وتركيا وغيرها. ويحتفل به الأكراد خاصة في شمال العراق.

«نو» تعني جديد بالفارسية و «روز» تعني يوم، فتأتي «نوروز» مجتمعة بمعنى اليوم الجديد، ويُجْمَعُ على عيد النواريز، وقد عُرِّبت قديماً، وظهرت في المعاجم التراثية مثل لسان العرب لابن منظور باسم «النيروز». [انظر مادة: ن ر ز].

والفعل «نَوْرَزَ» بمعنى دخل في النوروز أو احتفل بعيد النوروز، قال الشاعر[1]:

نَوْرَزَ الناسُ ونورزْتُ ولكنْ بدُموعِي

وذكَتْ نارُهم والنارُ ما بيْن ضلُوعِي

ولله درُّ القائل :

كيف ابتهاجك بالنوروز يا سكني وكل ما فيه يحكيني وأحْكِيهِ

فنارُه كلهيبِ النارِ في كبدِي وماؤه كتوالي دمعتي فيه

كما استعمل «النَّوْرُوزُ» بصيغته الفارسية حيث قال البحتري في وصف الربيع:

أتاك الربيع الطلْق يختالُ ضاحكاً من الحُسنِ حتى كاد أنْ يتَكَلَّمَا

وقد نبَه النَّوْرُوزُ في غلَسِ الدُّجَى أوائل ورد كُنَّ بالأمسِ نوَّما

وقيل بأنه: قُدِّم إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه شيء من الحلوى فسأل عنه، فقالوا: للنيروز، فقال: نَيْرُزونَا كل يوم، وفي المهرجان قال: مَهْرِجُونا كل يوم.

1- المعجم الوسيط، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، صفحة: 962.

ولكن هذه الرواية بشأن عليّ لم تثبت، وكان السلف يبتعدون عن الاحتفال بمثل هذه الأعياد.

كما يحتفل الأكراد بهذا العيد، ويعدّونه عيداً قوميّاً، وهو أيضاً يوم مقدس بالنسبة لأديان أخرى مثل: الإسماعيليين والعلويين وأتباع الدين البهائي والأذريين.

• أصل عيد النَّوْرُوزُ:

هناك عدة أساطير حول قصة عيد «النَّوْرُوز»، منها:

1- أن عيد «النَّوْرُوز» اخترعه (زرادشت) نفسه، وهو مؤسس الديانة الزردشتية، وعاش في مناطق أذربيجان وكردستان وإيران وتركيا، وظلَّت تعاليمه وديانته هي المنتشرة في مناطق واسعة من وسط آسيا إلى موطنه الأصلي إيران حتى ظهور الإسلام.

2- والأسطورة الثانية هي: أن الملك الضحاك كان ظالماً متجبراً، وكان قد ظهر على منكبَيْهِ نتوءَانِ قبيحَانِ يُشْبِهَان رأسَيْ حَنَشَيْن، وقد عجز الأطباءُ عن استئْصالها، فاضطروا إلى دهن كل واحدة منها بمخ إنسان كلَّ يوم، مما أدَّى إلى ذبْح شخصيْن من الشعب كلَّ يوم، ومع مرور الزمن دَبَّ الرُّعْبُ بين الناس فهجروا البلاد إلى الجبال والوديان، ثم انتفض فيه الأكراد تحت راية «كاوه» الحدّاد ضدّ الملك الإيراني المستبدّ (الضحّاك) وهو من الأشخاص الذين ذكر اسمهم في ملحمة (الشهنامة) الشهيرة والكتاب المقدس عند الإيزيديين (الأفستا).

3- والأسطورة الثالثة تعود إلى الملك الفارسي جمشيد، والتي تزعم أنه "استطاع إنقاذ الجنس البشري من فصل الشتاء الذي كان مقدراً له أن يقتل كل الكائنات الحية، حيث قام جمشيد بتشييد عرش مرصَّع بالألماس وجلس عليه، ثم رفعه الجنُّ إلى السماء، ثم تجمعت جميع المخلوقات حوله.

4- أما الأسطورة الرابعة فيقوم بإحياء طقوسها الأكراد، حيث يحيي الشعب الكردي «النَّوْرُوز» بإشعال النيران في العراق وسوريا وتركيا وإيران وأفغانستان وكازاخستان ودول أخرى وسط آسيا، الذي يعود إلى عصور قديمة، وفق الأسطورة أن إشعال النار كان رمزاً للانتصار والخلاص من الظُّلْم الذي كان مصدره أحد الحكام المتجبِّرين، ويدعى «زوهاك» (أي التنين أو الأفعى الكبيرة بالكردية)، حيث قاومه شخص يدعى «كاوه» فقتله وأشعل

النيران في قصره، واحتفالاً بذلك يقوم مناصرو «كاوه» بإشعال النيران في أعالي الجبال تعبيراً عن فرحهم بانتصار الخير على الشر.

• لقد كان «النَّوْرُوز» عيداً مشتركاً لعدد من الشعوب، فعلى سبيل المثال يحتفل به المصريون باسم عيد «شَمِّ النسيم»، حيث كتب المقريزي في كتابه «المواعظ والاعتبار»[1]: كيف أن «النَّوْرُوز» هو رأس السنة القبطية فيقول: النَّوْرُوز: هو أول السنة القبطية بمصر وهو أول يوم من توت، وسُنّتهم فيه إشعال النيران والتراش بالماء والخمر، واللعب ثلاثة أيام، وإظهار السماجات والحلي في الأسواق.

والإيرانيون يعتبرون عيد «النَّوْرُوز» عيداً قومياً وهو رأس السنة الفارسية، وتعطل كل الجهات الحكومية والأهلية في إيران اعتباراً من 20 آذار لمدة خمسة أيام، والمدارس والجامعات لمدة 14يوماً، أي في نفس الوقت الذي تتم فيه الأرض دورتها السنوية حول الشمس، لتبدأ دورة جديدة، كما أنه يوم للتسامح وبدء الأفراح و موسم المحاصيل بحسب "هافينتغون بوست".

أما الأكراد وخاصة أكراد شمالي العراق فيحتفلون بعيد «النَّوْرُوز» في 21 آذار من كل عام، وتعتبره الحكومة العراقية عطلة رسمية، وتبقى للنَّوْرُوز خصوصيته عند الأكراد، حيث تعطل مؤسسات إقليم كردستان العراق ثلاثة أيام، فجُلُّ الأحداث تقف شامخة بتضاريس حزنها وحقول فرحِها في هذا الشهر، ففي 16 آذار قصفت مدينة حلبجة بالسلاح الكيماوي، وفي آذار ترك الملايين من الكورد في العراق مدنَهم بعد فشل انتفاضتهم عام1991م، وفي آذار تَمَّ رمي ما يقارب مليون كوردي خلف الحدود مع إيران، وفيه كانت اتفاقية آذار عام 1975م بين صدّام وشاه إيران وبومدين؛ وعلى أثرها فشلت الثورة الكردية في العراق، وفي 12 آذار 2004م انطلقت شرارة الانتفاضة في قامشلو، وفي ليلة إحياء عيد «النَّوْرُوز» 20 /9 / 2008 سقطت كوكبة أخرى من شباب الكورد على مذبح الحرية غيْلة وغدراً على يد الأجهزة الأمنية للنظام الحاكم في سوريا، وهكذا نجد أن شهر آذار مضغوط في تاريخه الكردي ومفتوح باتجاهات عديدة.

• طقوس عيد «النَّوْرُوز»:

1- الخطط والآثار للمقريزي: 493/2.

من طقوس «النَّوْرُوز» لدى الكورد هي التزيين باللباس الكوردي التقليدي من رجال ونساء كباراً وصغاراً، والاحتفال به والخروج من البيوت إلى الطبيعة وتحضير الأطعمة التقليدية.

ولدى الفرس من الأعمال المحبوب عملها في «النَّوْرُوز» والتي تعتبر من الطقوس الجميلة هي وضع سُفرة أو مائدة تتضمن سبعة أشياء تبدأ بحرف السين «هفت سين» مثل: 1- سير = ثوم، 2- سكه = عمله نقدية، 3- سنجر = فاكهه مجففة، 4- سبزي = خضره، 5- سبيكه = سبيكه ذهبية، 6- ساهون = حلويات، 7- سماق = نوع من أنواع التوابل، إضافة إلى: مِرْآة وقرآن وسَمَك أَحْمَر وفواكه ومكسَّرات.

• ما بعد الفتح الإسلامي:

لم يحظَ الاحتفال بالنَّوْرُوز كبير عناية في صدر الإسلام، ولكن بدأ الخلفاء الأمويّون يوزعون الهدايا على الفرس في أيّام «النَّوْرُوز» وقيل: أن الحجاج بن يوسف الثقفي هو أول من قدَّم هدايا «النَّوْرُوز» في الإسلام، وقيل: أن عمر بن عبد العزيز ألغى هذه المراسيم.[الموسوعة العربية السورية، ندى حسون].

لكن تقديم الهدايا للفُرْس استمرَّ في زمن الدولة العباسية، التي قامت على أكتاف الأعاجم، فعلى سبيل المثال: أهدى أحمد بن يوسف الكاتب للخليفة المأمون سفطاً من الذهب.

ويقرر الأديب والمؤرخ حمزة بن الحسن الأصفهاني أن «النَّوْرُوز» في أول سنة للهجرة وافَقَ 18 حزيران، ولكنه أخطأ إذ عدَّه اليوم الأول من ذي القعدة. وكان الخَراج يُجْمَعُ في يوم النوروز[1].

وفي زمن الخليفة المتوكل تقدم موعد جمع الخراج شهرين، وفي سنة 245 هـ حدد موعد النيروز يوم 17 حزيران كما كان عليه في الماضي، وقد روى الصفدي هذا التعديل في «الوافي بالوفيات».

«وَجَاء زمن هِشَام فَاجْتمع الدهاقنة إِلَى خَالِد بن عبد الله الْقَسرِي فشرحوا لَهُ وسألوه أَن يُؤَخر النيروز شهرا فَكتب إِلَى هِشَام بن عبد الْملك وَهُوَ خَليفَة فَقَالَ هِشَام أَخَاف أَن يكون هَذَا من قَول الله تَعَالَى إِنَّمَا النسيء زِيَادَة فِي الْكفْر التَّوْبَة فَلَمَّا كَانَ أَيَّام الرشيد اجْتَمعُوا إِلَى يحيى بن خَالِد الْبَرْمَكِي وسألوه أَن يُؤَخر النيروز نَحْو شهر فعزم على ذَلِك فَتكلم اعداؤه فِيهِ فَقَالُوا هُوَ يتعصب للمجوسية فَاضْرب عَنهُ

1- دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الثاني والثلاثين (الطبعة الأولى)، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري:9992 - 9994.

فَبَقيَ على ذَلِك إِلَى الْيَوْم فَاحْضُرْ المتَوَكل إِبْرَاهِيم بن الْعَبَّاس وَأمره أَن يكْتب كتابا فِي تَأْخِير النيروز بعد أَن يحسبوا الْأَيَّام فَوَقع الْعَزْم على تَأْخِيره إِلَى سَبْعَة وَعشْرين يَوْمًا »[1].

وفي مدح المتوكل قال البحتري:

لك في المجد أول وأخيرُ ومساع صغيرهنَّ كبيرُ

إنَّ يوم النَّوْرُوز عاد إلى العهد الذي كان سَنَّه أزْدَشيرُ

أنت حوَّلْتَه إلى الحالة الأولى وقد كان حائراً يستديرُ

وبقي هذا التعديل حتى أخّر الخليفة المعتضد «النَّوْرُوز» بستين يوماً، ووافَقَ وقوعه يوم 11 حزيران. وجاء في تاريخ ابن الأثير في حوادث سنة 282 هـ:

«فِيهَا أَمَرَ الْمُعْتَضِدُ بِالْكِتَابَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ كُلِّهَا وَالْبِلَادِ جَمِيعِهَا بِتَرْكِ افْتِتَاحِ الْخَرَاجِ فِي النَّيْرُوزِ الْعَجَمِيِّ، وَتَأْخِيرِ ذَلِكَ إِلَى الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ حُزَيْرَانَ، وَسَمَّاهُ النَّيْرُوزَ الْمُعْتَضِدِيَّ، وَأُنْشِئَتِ الْكُتُبُ بِذَلِكَ مِنَ الْمَوْصِلِ، وَالْمُعْتَضِدُ بِهَا وَأَرَادَ التَّرْفِيهَ عَنِ النَّاسِ، وَالرِّفْقَ بِهِمْ»[2].

وقد كان الاحتفال بالنوروز قائماً في الدول الإسلامية الفارسية كالدولة السامانية التي قامت في بلاد فارس في القرن الرابع الهجري، كما احتفل بها آل بويه في بغداد، وقد هنأ الشاعر الشريف الرضي بهاء الدولة بالنوروز في قوله[3]:

وأنعم بذا النيروز زوراً نازلاً ومنتظره

آل بويهٍ أنتم الأمطار والناس الخضره

1- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل الصفدي (المتوفى: 764هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وغيره، بيروت، دار إحياء التراث، 2000م: ج1، ص33.

2- الكامل في التاريخ لابن الأثير: ج6، ص483.

3- مقال: عيد النوروز الأصل التاريخي والأسطورة، مجلة تحولات، العدد الواحد والاربعون.

كما كانت تحتفل فيه الدولة الفاطمية بمصر، وسمي بالنيروز القبطي، قال الذهبي رحمه الله في رسالة "تشبه الخسيس بأهل الخميس"ص 46: (فأما النيروز، فإن أهل مصر يبالغون في عمله، و يحتفلون به، وهو أول يوم من سنة القبط، ويتخذون ذلك عيداً، يتشبه بهم المسلمون)[1].

وبقي يوم النيروز يتغير بسبب عدم مراعاة أصول الكبيسة وحدوث اختلاطات، وكان يتّجه إلى الخريف إلى أن حُلّت هذه المشكلة على يد الشاعر والرياضيّ (عمر الخيام) في القرن السادس الهجري، بعد أن طلب ملك شاه السلجوقي إحداث تصليحات على التقويم الإيراني، وصنف الخيام كتاباً سماه «نوروز نامه»، واختير التقويم «الجلاليّ» تقويماً شمسيّاً للبلاد.

وبقيت الاحتفالات بالنوروز مستمرة في الدول الفارسية اللاحقة مثل الدولة الصفوية، ويروى أن الشاه عباس بعد أن حوَّل عاصمة الدولة إلى أصبهان، أحيا النوروز في ساحة (نقش جهان) وكان ذلك سنة 1006 هـ الموافق 1597م[2].

•وللشاعر العراقي (بدر شاكر السيّاب) قصيدة: وحي النيروز، يذكر فيها أن النوروز هو: ثورة الفقراء الكادحين على الظَلَمة والمستبدّين، إذ يقول:

يا شعب كاوه سل الحداد كيف هوى صرح على الساعد المفتول ينهارُ

وكيف أهوت على الطاغي يدُ نفضت عنها الغبار؟ وكيف انقض ثوار؟

والجاعل الكير يوم الهول مشعلة تنصب منه على الآفاق أنوار

قفْ عندَ شيرين واهتف بما نطقت وحدثتك بما تشتاقُ أحجارُ

شيرين يا جبل الأحرار ما غفلت عن حقها الضائع المسلوبِ أحرارُ

1- نقلاً عن "مجلة الجامعة الإسلامية" عدد 103- 104.

2- مقال: الإيرانيون يحتفلون برأس السنة الفارسية.. ماذا تعرف عن عيد "النوروز" ومثيله عند العرب؟، هافينغتون بوست عربي.

الفهرس

التسلسل	الموضوع	رقم الصفحة
0	مقدمة	1
1	الفصل الأول القيم الإسلامية السياسية الحضارية	8
2	أبرز القيم الحضارية في ميثاق التحالف الإسلامي	9
3	أصول الدبلوماسية في الإسلام	14
4	الاعتراف الدولي في العصر الحديث	18
5	الحصانة الديبلوماسية سنة نبوية	26
6	الشفافية مبدأ إسلامي رفيع	30
7	سنة التدرج في النهضة والإصلاح	34
8	علاقة القائد بجنده ... غزوة بدر أنموذجاً	37
9	معايير السفير في السياسة الإسلامية	42
10	وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا	48
11	السياسة الناعمة	52
12	السياسة ليست دنسة .. بل علم شريف	55
13	الوطن والمواطنة	57
14	الفصل الثاني من السياسة الشرعية	60
15	أبو ذر وعمر.. وإصلاح الفكر	61
16	بين الانتقاص .. وتقديس الأشخاص!	64
17	حكم الإقامة في بلاد غير المسلمين	66
18	رفق الحاكم بالرعية	73

19	ساهم ولو بلبنة في القوة الناعمة	76
20	من هم أولو الأمر؟	78
21	نحن والغرب .. وثقافة العداء	81
22	هل في الإسلام حكومة دينية؟	84
23	من أنفس ما قرأت.. عبد الحق حرٌّ شريف!	86
24	**الفصل الثالث** **من شماريخ التاريخ**	88
25	أصحابي .. أمَنَة لأمَّتِي	89
26	(أميتوا الباطل بالسكوت عنه) .. عبارة فيها نظر ..!	94
27	بيان في الرد على بهتان	97
28	عالمية الإسلام .. وعولمة الغرب!	99
29	قراءة التاريخ .. لمستقبل أجمل ..!	104
30	كيف ندرس التاريخ؟	107
31	لو سكت من لا يعلم لسقط الخلاف..!	110
32	عبرة من بومبي مدينة الرذيلة	114
33	تاريخ الأرمن .. وكذبة المذبحة الكبرى!	118
34	الكورد.. قصة العزة الغائبة والمجد الضائع	121
35	ماذا تعرف عن النوروز؟	123
36	الفهرس	129

همسات وقبسات

في الدبلوماسية الإسلامية

د. محمد محمود كالو

دار النهضة العلمية
1439 هـ - 2018 م